الإسلام والدولة

الشيخ النيل عبد القادر أبوقرون

الفهرس

الفهرس 2
مُفتَتَح 3
الإيمان بالرسول 4
دين الإسلام أم دين المسلمين ؟ 10
دعوة الرسول 13
دولة أم دعوة ؟ 16
ما هو حكم الله ؟ 18
مرجعية دينية لا حكم سياسي ! 25
إطاعة أولي الأمر ! 27
دولة من أجل الدين أم دين من أجل الدولة ؟ 30
سُنَّة الخلفاء الراشدين ! 33
القرآن والسلطان ! 38
دولة مدنية أم دينية ؟ 43
من هم الَّذِينَ آمَنُواْ ؟ 45

مُفتَتَح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أَرسَلَ محمداً صلى الله وبارك عليه وآله خاتماً لأنبيائه، وأيَّده بالمُعجِزات، ولم يُرسله بها لأنه قد كذَّبَت بها الأُمم السابقات؛ قال تعالى : ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ**﴾[1] فكانت رسالته خاتمةً شاملةً مُهَيمِنةً على ما سَبَقَها من الرسالات، ومؤيّدةً لا لاغيةً لمن سَبَقَه من المرسلين وكتبِهم من الزبور والإنجيل والتوراة.

أحمَده على أن جعلنا من أُمَّتِه، ونسأله التوفيق للقيام بما أمَرَنا به. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مُعين ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[2]، وصلى الله وبارك على من لا نبي بعده في العالمين الذي كان يصلي عليه الله نبياً وآدم بين الماء والطين، وجعل الصلاة عليه ذكر الملائكة أجمعين، وأمر الذين آمنوا بها ليكونوا من الصالحين وصلى الله وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن صحابته المنتجبين.

ما قَصَدتُ بهذا الذي أنا بِصدده الطعن في مذهب أو مُعتَقَد، ولا أن أحمِل إنساناً على فِكرٍ لَدَيَّ مُعتمَد، فحُرِّيّة الفِكر والاعتقاد قد أمَر بها ربُّ العباد، وخَتَم بها الرسالات إلى يوم التناد. قال تعالى : ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[3] لكلّ العباد، وقال عزّ من قائل: ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾[4] وأكَّد سبحانه وتعالى في محكم تنزيله بأنّه ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[5]. فمَنَع الإجبار عليه في العالمين، وحُكمُه تعالى باق إلى يوم الدين.

كلّ ما هناك أن الذي رأيته خشيت أن يوقع أحداً في مخالفةٍ للقرآن العظيم والتهلُكة في المآل، ورأيت تدوينه حتى يكون عرض حال لمن يشاركني الحال، فيُشَمِّر لخوض المجال، عسى أن نكون وإياه داخلين في رحمة ذي الجلال، مع الذين أنعَمَ الله عليهم من الصالحين من النساء والرجال، ويعصمنا من الزيغ والخِزي والضلال، إنّه الرَّحيمُ السَّميعُ المُجيبُ السؤال.

في هذا المؤلَّف وما حوى أردت أن أتناول بِتَمحيصٍ وتَدقيقٍ بَعض ما جاء في مصادِرِنا الأساسية، منتهجاً في سَعيِي هذا ميزاناً أساسه القرآن العظيم وعِصمة النبي صلى الله وبارك عليه وآله، مُلقِياً الضوء على بعض الموروث لتحريك هذا الركود المصنوع. وهي دعوة علمية تناقِش في حوارٍ هادئ - لا تُهمَة فيه لأحد - ما يظُنّه البعضُ مُسَلَّمات لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وأبرأُ في هذا مِن كُل قصدٍ سيء أو جَدَلٍ باطل لدحض الحق. كما وأني أَقبَلُ المُراجَعة والمُفاكرة، والالتِقاءَ بِمَحَبَّة والاختلافَ باحتِرام.

---

1 سورة الأسراء : 59
2 سورة الصف : 9
3 سورة الكهف : 29
4 سورة يونس : 99
5 سورة البقرة : 256

الإيمان بالرسول

أمَر الله سبحانه الذين آمنوا بالارتقاء بالتقوى ليؤمنوا برسوله، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**﴾[1]، فالإيمان بالرسول محمد صلى الله وبارك عليه وآله هو مَطلَب الحق من الذين آمنوا، فنسأله تعالى أن يجعلنا من المتقين وبرسوله من المؤمنين وأن يرفع إيماننا به إلى اليقين، ويجعلنا لرسوله من القانتين، ليؤتينا أجرنا مرتين قال تعالى : ﴿**وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ**﴾[2] وألا يجعلنا مع الذين يجنحون ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾[3].

جاء في حديث لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه "**ليس حفظ القرآن بحفظ حروفه**"[4] وعلى ضوء هذا فيكون الذي يحفظ القرآن وهو مُستَمسِكٌ بما يُعارِضه من قول الرجال ليس بِحافظٍ له بأيّ حال، وهو إمّا أن يكون "كالحمار يحمل أسفاراً" وإمّا أن يكون من الذين ﴿**اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً**﴾[5] وإما أن يكون من الذين ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا**﴾[6].

قال تعالى : ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[7] وقال عزّ من قائل: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[8]. هكذا أمر الله سبحانه أن يكون أسلوب الدعوة إلى الله تعالى. وجاءت بعض الأحاديث النبوية على تبيان هذا النهج القرآني، فقال صلى الله وبارك عليه وآله "**حَبِّبوا الله عز وجل إلى الناس وحَبِّبوا الناس إلى الله يُحبِبكم الله**"[9] وقال صلى الله وبارك عليه وآله "**يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا**". ونهى سبحانه عن إكراه الناس في الدين بل أعطاهم الحرية الكاملة لإرادتهم فإن أرادوا أن يكفروا أو أرادوا أن يؤمنوا فذلك متروك لهم، لا يُكره أحد من الناس على إعتناق الدين لأنّ مَن يُكره على شيء فهو كارِهٌ له، وذلك يقود للنفاق الذي هو أسوأ من الكفر ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾[10]. وليس الدين الذي أنزله الله على عباده بذلك الشئ البغيض المكروه حتى يُجبَر الإنسان عليه أو يُقاتَل ويراق دمه إن لم يعتنقه ويستباح ماله وعرضه، إنما هو لرقي الإنسان وليتم له صالح الأخلاق ؛ ولهذا كانت بعثة النبي صلى الله وبارك عليه وآله فقد جاء عنه "**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**"[11] فلا مجال فيها للاعتداء على الحريات قال تعالى : ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[12]. ولكن نجد هذا النهج الربّاني يصطدم بحديث ينسبونه لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله وهو "**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**"[13]!!! فهل يُمكننا تصديق من يقول لنا إن النبي المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله يقول أو يفعل ما يُعارِض ما أُنزِل إليه من ربه، أو يتَّخذ نهجاً غير الذي أُرسِل به؟ وهل قاتَلَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله الناس لإجبارهم على الدخول في الإسلام؟

وهل جاء النبي صلى الله وبارك عليه وآله برسالة يستبيح بها دماء كلّ الناس وأموالهم إلا أن يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ أهكذا الرحمة المُهداة؟ بل هل توجد حادثة واحدة أجبَرَ

---

1 سورة الحديد : 28
2 سورة الأحزاب : 31
3 سورة النور : 47
4 التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة
5 سورة الفرقان : 30
6 سورة لقمان : 21
7 سورة النحل : 125
8 سورة العنكبوت : 46
9 حلية الأولياء
10 سورة النساء : 145
11 مسند أحمد
12 سورة البقرة : 190
13 صحيح البخاري

فيها النبي صلى الله وبارك عليه وآله أحَدا من الناس على أن يشهد أن لا إله إلا الله وأنّه رسول الله؟ وهل يَصِح أن يُنسَب إليه حديث **"جُعِل رزقي تحت رمحي"**[1] وهو القائل **"إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني"**[2]؟ وقال تعالى : **﴿...لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾**[3].

فقد فتح النبي صلى الله وبارك عليه وآله مكة فلِمَ قال لهم **"اذهبوا فأنتم الطلقاء"** بدلاً من أن يأمرهم أن يقولوا لا إله إلا الله؟ فإن كان أُمر بأن يقاتل الناس على الشهادتين كما جاء في الحديث المزعوم فكيف لا يمتثل لأمر الله وهو رسوله الأمين الذي لا ينطق عن الهوى؟

وما يؤكد عدم وجود أمر له بغير ما فعل، مَنحُهُم الحرية وإطلاقُ سراحهم بكل كرامة، تماشياً مع إرساء قواعد الإسلام وطاعة لربه العظيم الذي بين بوضوح لا لبس فيه أن الحرية مصونة في الإيمان أو الكفر **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾**[4]، وأنه لا إكراه أبداً على الإيمان، فمِن أين جاء المحدثون بتلك الأحاديث التي تناقض النص الصريح للقرآن، وإذا افترضنا أنّ نِسبة الحديثِ لرسولِ الله صلى الله وبارك عليه وآله صحيحة، كما يدَّعون، فلماذا تبرأ إذن من فعل خالد بن الوليد حينما قتل مشركين يوم فتح مكة؟ فالحديث المنسوب يقول إنّ من لم يشهد أن لا إله إلا الله يُهدر دمه ويؤخذ ماله، وخالد قَتَل مَن لم يقُل لا إله إلا الله ولم يأخذ أموالهم، وقد تبرأ النبي صلى الله وبارك عليه وآله بشدة من فِعلته بقوله **"اللهم إنّي أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد"**[5] فالأمر الإلهي لرسوله الكريم صلى الله وبارك عليه وآله جليّ، هو أن لا يُكره الناس على الإسلام وأن يَدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، فكيف يُقال أنّ الله أمره بالقتال لنشر الإسلام؟

ولماذا الهياج والصراخ والاعتراض على (البابا[6]) في قوله إن الإسلام انتشر بحدّ السيف إذا كانوا يعتقدون حقاً في الحديث الذي نسبوه لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ؟

إنّ هذا الحديث لَم يُنسَب لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله إلاّ لإيجاد مبررات لتسمية الاستعمار العربي الذي تمّ للشعوب الأخرى بـ"الفتوحات الإسلامية"، ولذلك سَمُّوا المواقع التي كان رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله يدافع فيها عن المدينة "غزوات". فمعركة بدر التي كانت داخل حدود المدينة فُرضت على المسلمين فرضاً، ولم يخرج الرسول صلى الله وبارك عليه وآله من المدينة ليُقاتِل قريشاً لِفَرض الإسلام عليهم. بل مِن أجلِ اعتراضِ عير قُريش، التي كانت قادمة من الشام، بِقَصدِ استرداد أموال المُسلمين التي أخَذها المُشركون في مكة بعد إخراج المُسلمين مِن ديارهم. وبعد أن نَجَت العير مِن الاعتراض قرّر المُشركون مُهاجمة المُسلمين في ديارهم حتى يأمَنوا شَرّهم ويستأصِلوا شأفَتهُم، فجاءوا غُزاة من مكة إلى أن نزلوا بِبَدر، فكان لابُدّ مِن مُلاقاتهم، وهكذا فُرضَت المعركة على المُسلمين ولم يكن ثمة مناص من ملاقاة المشركين **﴿...وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾**[7]، فكيف أصبح المؤرخون المسلمون ومن تبعهم إلى اليوم يسمونها أولى غزوات الرسول صلى الله وبارك عليه وآله..؟!

أما معركة أُحُد التي جاء فيها المشركون إلى المدينة بجيشهم فهي أيضاً من وجهة نظرهم غزوة، ومن يعرف أبسط المعلومات الجغرافية عن موقعي أُحُد وبدر يدرك كم كانا قريبين من المدينة، وأن المشركين هم الغزاة وليس الرسول وأصحابه : إذ كان موقفهم العسكري دفاعياً، وهذا ما حدث أيضا في ما يسمّى بغزوة الأحزاب الذين جاءوا إلى المدينة بجيوشهم، فما كان من المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله إلا أن حفروا خندقاً حول المدينة للدفاع عنها !!

ومن الواضح في كل ما سبق أن رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله لم يكن هو الغازي في هذه المعارك، ولم يقاتل أحداً لفرض الإسلام، ولم يعتد **﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾**[8].

---

1 تهذيب الكمال
2 صحيح مسلم
3 سورة طه : 132
4 سورة الكافرون : 6
5 صحيح البخاري
6 البابا بنيديكت السادس عشر
7 سورة الأنفال : 7
8 سورة البقرة : 190

ولعل النتيجة التي يمكن أن يخلص إليها مَن يقرأ الحديث الآنف الذكر **"أمرت أن أقاتل الناس"** ويعتقد فيه – ونعوذ بالله من ذلك - ما يلي:

أولاً : إنّ الرسول المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله يقول ويفعل ما يناقض قول الله وما يأمره به في القرآن العظيم.

ثانياً : كان انتشار الإسلام بحدّ السيف – وليصمت الذين يدْعون إلى الإسلام بالعقل والمنطق وحُسن الخُلُق، والموعظة الحسنة.

ثالثاً : إن الرحمة قد انتفت عن نبي الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله فلم يجد متسعاً لإيصال رسالته إلى الناس بغير السيف.

رابعاً : كلمة "الناس" في الحديث جاءت على إطلاقها وكأنّ رسول الهداية جاء مقاتلاً للناس لا داعياً ومبَشِّراً ونوراً.

ومن خصائص الرسالة العالمية الخاتمة والمُستمرّة ألا تُكرِّس للعداءات والمرارات والدماء ؛ لذا فإنّي لا أرى إمكان نسبة هذا الحديث إلى النبي صلى الله وبارك عليه وآله، وردُّه واجبٌ على كل مسلم يؤمن بالله ورسولِه وكتابه وعصمة نبيه الذي كان **"خلقه القرآن"**[1].

لقد جاءت المصادر التي وجدنا عليها آباءنا مُحَمّلة بما لو قبلناه كله لا يكون الدين إلا قبول التناقض، فقد صَحِبَ هذه المصادر كَمٌّ هائل مِن الترهيب والتخويف مِن أن يُمَسّ هذا الموروث بنقد، مهما بلغ النقد من الصحة ولو كان يرتكز على ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه! وصار الإرهاب الفكري من المستحسنات، ويرون المدح في مقولة "لا يُفتى ومالك بالمدينة" على الرغم مما فيها من الإرهاب الفكري وفرض المذهب على الناس، ورغم أن صاحب هذا المذهب هو الذي كان يجلس على كرسيّه في مسجد النبي ويشير إلى النبي في مقامه واصفاً له بأنه "صاحب هذا القبر"[2]، كأن نِسبة النبي صلى الله وبارك عليه وآله إلى ذلك القبر أفضل من كونه نبياً ورسولاً يُصلي عليه الله وملائكته، فيُعَرِّف رسول الله بالقبر!! وكذلك هو القائل أفضل الناس أبوبكر وعمر وعثمان، ثم قال "ههنا وقف الناس"[3] مُعَرِّضاً بعلي بن أبي طالب عليه السلام وقائلاً "وليس مَن طَلَبَ الأمر كَمَن لا يطلُبه"[4] – بينما علي عليه السلام لم يطلُب الأمر – الحُكم - بَل رَفَضَ أن يُبايِعَه الناسُ بعد مَقتل عثمان حتى أصَرُّوا عليه، فأبى إلا أن تكون البيعة في المسجد[5]. وأصبح التِزامُ أكثَر المسلمين وتمسُّكهم بالموروث من المصادر والمذاهب، غير قابلين للحياد عنه، ولو جئتهم بآية من كتاب الله يقولون عنك "قُرآني" كأنما هذه الصفة سُبَّة ، تُصَنَّف بها ثم يُرفَض القبول منك ، ويقولون : "هذا نهج السَلَف ... هذا ما وجدنا عليه آباءنا" فيَصدُق عليهم قول الله تبارك وتعالى ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا**﴾[6] وأصبح التقديس للسَلَف هو التَدَيُّن، بل هو الدين عند أكثر المسلمين - كأنّ الله سبحانه اقتَصَرَ فَضلَه عليهم ولم يبق له من الفضل شيء لمن يأتي مِن بعدهم! فأفتوا بقفل باب الاجتهاد وقيَّدوا فضل الله الواسع، وحرَّموا الطعن في الموروث الذي أصبح هو المرجعية رغم ما يحمل من التناقضات التي لا يمكن تجاوزها بحال! وأنشأوا منهجاً للدين بمُسلّمات لا تقبل حتى المناقشة العلمية، وأسَّسوا فِقهاً لِسَد الذرائع، ما أنزَل الله به من سلطان، أقصوا فيه الآخر وألغوا فيه العقل، وحجروا فيه الفيض الإلهي وحركة الحياة ودورة التاريخ بِقَفلِ بابِ الاجتهاد.

جاء في صحيح البخاري في باب "رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت" أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر **"أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحقِ، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها.. فأخشى إن طال بالناس**

---

1 مسند أحمد

2 كشف الخفاء والسلسلة الصحيحة

3 ترتيب المدارك وتقريب المسالك

4 ترتيب المدارك وتقريب المسالك

5 جاء في تاريخ ابن خلدون: **"لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والانصار وأتوا عليا يبايعونه فأبى وقال أكون وزيرا لكم خير من أن أكون أميرا ومن اخترتم رضيته فألحوا عليه وقالوا لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك فخرج إلى المسجد وبايعوه"**

6 سورة البقرة : 170

زمان أن يقول قائلٌ: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله..."[1] وهأنذا أقول والله لا أجد آية الرجم في كتاب الله طال علينا الزمن أو قصر. ويستمر حديث البخاري فيما ينسبه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه (**إنا كُنّا نقرأ فيما نقرأ مِن كتاب الله "أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كُفرٌ بِكم أن ترغبوا عن آبائكم - أو إن كُفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم"**) فهناك شك في هذه الإضافة نفسها المُشكّكة في كتاب الله!!! ولا يقولن أحد بأن هذه من الآيات المنسوخة لأنه إذا كانت كذلك فلِمَ ذكَرها عمر؟ فإنّ الله سبحانه إذا نسخ آية جاء بخير منها أو مثلها، فهل لم يجد هذا البديل الأحسن؟ قال تعالى : ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾[2].

على الرغم من أني أرى أنه لا يوجد نسخ في آيات القرآن، تعالى الله أن يغير ويبدل فيما أنزل لأنّ ذلك قد يعني أن ما نسخ أصبح لا يلائم الوقت وذلك لا يكون إلا عن تفكير، وتعالى الله عن العقل والتفكير فهو الفعّال لما يريد عن علم مسبق. فالآيات التي محل النسخ والنسيان هي الآيات الكونية التي أُرسل بها الرسل السابقون كسفينة نوح عليه السلام، وآيات موسى عليه السلام التسع لبني إسرائيل، وإنزال المائدة لعيسى عليه السلام، والناقة لصالح عليه السلام. على الرغم من أن محمداً صلى الله وبارك عليه وآله قد خُصّ بأعظم من تلك الآيات إلا أنه لم يُرسل بها ولم يحتج بالآيات الكونية التي خُص بها على صحة رسالته فقد شُقَّ له القمر ورُدَّت له الشمس وكَلَّمَه البعير وسَجَدَ له، وكَلَّمَه الحَجَر وكَلَّمَه الجِنّ، وسَعَت إليه الشجيرات ونَبَع الماء من يديه وأَشبَعَ الجيشَ بِصاع شعير... الخ ولا تُحصى معجزات من كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه صلى الله وبارك عليه وآله وليس هذا مجال إحصائها. وعلى الرغم من ذلك لم يرسل بهذه الآيات والمعجزات قال تعالى : ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ**﴾[3] فقد أوتي صلى الله وبارك عليه وآله كما قال ما لم يؤت أحد قبله؛ جوامع الكلم، وجعلت له الأرض مسجداً، ونصر بالرعب، وأعطي الشفاعة، فكان كلامه هداية لمن يسمعه إلا من سبق عليه القول. ولم يجعل المعجزات سبباً لهداية الناس؛ لأنها خرق للعادة، لا تماشياً مع ناموس الكون، ولذلك هي محل النسخ وليس الدوام، أما هديه صلى الله وبارك عليه وآله القرآني فدائم بدوام الزمان ولا تتغير آياته ولا تُنسخ.

جاء في الموطأ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه "**إيّاكُمْ أَنْ تَهْلَكُوا عَنْ آيَةِ الرّجْمِ. أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ لاَ نَجِدُ حَدّيْنِ فِي كِتَابِ اللّهِ. فَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم, وَرَجَمْنَا. وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ, لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النّاسُ: زَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ فِي كِتَابِ اللّهِ تَعَالَى، لَكَتَبْتُهَا (الشّيْخُ وَالشّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتّةَ) فَأَنّا قَدْ قَرَأْنَاهَا"**. والعجب أن يُقال عن عمر إنه يخاف من كلام الناس في مقابل إثبات كلام الله!!! والغريب في هذا الحديث المنسوب لعمر رضي الله عنه أن الآية التي ذَكَرَها هي الرجم للشيخ والشيخة دون ذِكر أسباب الرجم، كأنما كل من وصل إلى عُمر الشيخوخة يُرجَم كما تفعل بعض القبائل البدائية التي لا دين لها! وإذا كان الرجم فريضة أنزلها الله تعالى كما قالوا، فكيف يطبق الرجم على الأَمَة المحصنة الزانية؟ فإن عليها ﴿**نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**﴾[4] كما قال الله سبحانه!!.

وفي سنن ابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها قالت **"لقد نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشراً، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلمّا مات رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكلها"**، وجاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها **"كان فيما أنزل من القرآن (عشر رضعات معلومات يحرّمن) ثم نسخن بـ(خمس معلومات) فتوفي رسول الله وهن فيما يقرأ من القرآن"**، فهل أكل الداجن آية عشر رضعات وترك هذه الخمس؟ وأين هذه الخمس أيات الآن؟ ومن أسقَطَها بعد رسول الله صلى الله وبارك وعليه وآله حتى لا

1 صحيح البخاري – باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت
2 سورة البقرة : 106
3 سورة الإسراء : 59
4 سورة الإسراء : 59

تُقرأ مِن كِتاب الله؟ وهل يا ترى كان ذلك الداجن تمساحاً أو كلباً – لأن الكتابة كانت على الكتوف والجلود؟ ولكن لا يمكن أن يكون كلباً لأن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله كان يَمنَع تربِيَةَ الكِلاب؛ وأما التمساح فيستحيلُ عَيشُه في الصحراء أو في بلد يعز فيه الماء.

هذا بعض ما وجدنا عليه آباءنا في أصحّ ما عندهم من الكتب بعد كتاب الله!! فهل نظلُّ على آثارهم مقتَدين؟ ولا أتصوّر كيف يغفَل مُسلِم من أن تكون مرجعيّته الله ورسوله، ويرهَن عقله لغيره من الرجال الذين ليس لديهم عصمة ولن يكونوا له شُفعاء – لأنّهم أنفسهم مُحتاجون للشفاعة – ولا يُسأل عنهم ولا عن فِكرهم ولا عن فعلهم ولم يأمُره الله بالأخذ عنهم، قال تعالى : ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا..**﴾[1]!! كيف يأبى مسلمٌ أن تكون مرجعيّته كتاب الله وعصمة النبي صلى الله وبارك عليه وآله؛ الذي أمر الله سبحانه بتعظيمه وتوقيره والأخذ عنه، ويحشر نفسه في قوله تعالى ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً**﴾[2]؟

وكيف يقبلون تصديق حصول النقص في القرآن بآيات معينة؟ فهل الأولى تصديق حفظ الله للقرآن من كل تحريف ونقص، أم اعتبار ما ينسبونه لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله من الحديث صحيحاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى وإن خالف القرآن؟ وعلى الرغم من أنه لا مجال للمقارنة بين القرآن وما ينسبونه هُم إلى رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله.

لقد حملَت المصادر التي وجدنا عليها آباءنا مِن السلوك والأفعال والأقوال ما لا يمكن نِسبته لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله كقولهم **"كان يطوف على نسائه بغسل واحد"**[3] بينما الله سبحانه يشهد له ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ**﴾[4]؛ وكنسبتهم له حديث **"لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات"**[5] وهو القائل **"لا يكذب المؤمن إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون"**[6] فنسبوا إليه صلى الله وبارك عليه وآله اتهام خليل الرحمن ورسوله إبراهيم عليه السلام بالكذب، ليجعلوا حديثه مخالفاً لقول الله تعالى ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً**﴾[7] - كبرت كلمة تخرج من أفواههم! وكقولهم **"أنه كان معه شيطان قرين"** ثم يستحون قليلاً فيقولون **"ولكن الله أعانه عليه فأسلم"**[8]؛ ليكون النبي عندهم مُتَّهماً بالتَغافُل عَن ذِكر الرحمن، قال تعالى : ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾[9]؛ بينما الله سبحانه ينفي الشيطان عن عباده المؤمنين عموماً في قوله تعالى ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[10] فهل النبي أقل درجة منهم؟ ويقول تعالى على لسان الشيطان ﴿**إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[11] فهل لم يكن النبي صلى الله وبارك عليه وآله منهم؟ وقالوا إنه تزوج بعائشة وهي طفلة في السادسة من عمرها[12]، رغم أنهم يقولون إنها كانت مخطوبة قبله! فإن كان هذا اعتقادهم فلماذا الاحتجاج على مَن رَسَمَ صورةً لِرَجُلٍ يحمل طفلة يُريدُ الزواج منها ويقول هذا رسول المُسلمين؟ ألَم يوضح بتلك الصورة ما جاء في صحيح البخاري؟ ونسبوا إليه أنه أَشَارَ نَحْوَ مَسْكَنِ عَائِشَةَ فَقَالَ **"هُنَا الْفِتْنَةُ (ثَلَاثًا) مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ"**[13]. وقالوا إنه استاء من مجيء أعمى إليه يسأله عن أمر دينه فعبس في وجهه وتولى عنه!! وذلك رغم أن الأعمى لا يُبصر العبوس، كما أن العبوس والتولي (أو

---

1 سورة المائدة : 104

2 سورة النساء : 61

3 صحيح البخاري

4 سورة المزّمّل : 20

5 صحيح البخاري

6 الدر المنثور للسيوطي

7 سورة مريم : 41

8 صحيح مسلم

9 سورة الزخرف : 36

10 سورة النحل : 99

11 سورة الحجر : 40

12 صحيح البخاري - **"حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ وَبَنَى بِهَا وَهِيَ بِنْتُ تِسْعٍ وَمَكَثَتْ عِنْدَهُ تِسْعًا"**

13 صحيح البخاري

الإدبار) وصَفَ الله بهما كافراً في قوله تعالى ﴿**ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ**﴾[1]. وقد هَضَمَت ذلك نفوسٌ مريضة وأصبح دفاعها عن هذه المنسوبات يصل حد الاحتراب! وإذا وُصِفَ بها حبيب غير النبي صلى الله وبارك عليه وآله اشمأزّت قلوبهم، ويُعلِّلون ذلك بأن ما نُسِب للنبي صلى الله وبارك عليه وآله قُصِدَ به التشريع!!! أما مِن أين جاءوا بحُجّة "قُصِدَ به التشريع"، فلا توجد مرجعيّة لذلك لِلعَجز عن معرفة من الذي "قَصَد" – هل هو الله سبحانه أم هو محمد صلى الله وبارك عليه وآله - وهل اطّلعوا على ما في قلبه وعلموا قصده؟؟ فالإدعاء بأن ذلك "قُصد به التشريع" ما هو إلا لتبرير زيف القول والطلاء على العقول لقبول ما يجب رفضه في حق الذات الشريفة المحمدية. ومن الغرائب أن هناك من يرى في الباحث في إبراز الأحاديث التي تصطدم بما يدَّعونه في تعظيم النبي صلى الله وبارك عليه وآله وحبهم له وبما جاء في كتاب الله تعالى كأنّه يحيي الفتنة ويقولون – دون حياء - إن هناك من الدين ما يجب ألا يطلع عليه عامة الناس!!! وهذا رأي كثير ممن يُظَن أنهم من العلماء. فالإسلام عندهم رسالة خاصة لمن يسمونهم بالعلماء وأخرى للرجرجة والدهماء!!! فالتناقض يجب أن يُحجب عن غير العلماء، ومن يُظهره فقد قالوا عنه "الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها"[2]!! فهل صاحب الفتنة هو من قَسَّم الإسلام إلى رسالتين؛ أم صاحب الفتنة مَن يَرفُض ذلك ويَرفُض كُلَّ ما جاء مُخالِفاً للقرآن وعِصمَةِ النبي صلى الله وبارك عليه وآله، ويجعل ذلك هو المنهج والمرجعية؟ ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى**﴾[3].

1 سورة المدّثر : 22-23
2 كنز العمال
3 سورة سبأ : 43

دين الإسلام أم دين المسلمين ؟

قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾[1] وقال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2].

معلومٌ أن الرُّسل كلهم - صلوات الله عليهم - ما جاءوا من عند الله إلا بالدين، أي بالإسلام. فإذا كان - الله سبحانه - وتعالى يؤكد أن الدين عند الله الإسلام، فما جاء موسى عليه السلام من عند الله إلا بالإسلام، ولم يؤسِّس دولةً ولا حكومة، ولم يكن حاكماً ولا أميراً. وعيسى عليه السلام كذلك جاء بالدين أي بالإسلام مُصدّقاً لموسى عليه السلام وكتابه وما أَنزَل الله فيه مِن أحكام ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[3] ولم ينشئ دولةً، وما كان ملكاً ولم ينصب نفسه حاكماً أو أميراً، وقال **"ما لله لله وما لقيصر لقيصر"** ولم يُسجِّل التاريخ عن دولةٍ موسَويّة أو دولةٍ عيسَويّة أو دولةٍ إبراهيميّة أو دولة لوطية. وجاء محمد صلى الله وبارك عليه وآله بالإسلام ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾[4] أي التوراة والإنجيل وما أنزل الله. ولهذا فإن مَن لا يؤمن بهذه الكتب كما نزلت، ويُصدِّق بما شرع الله فيها، ومن لا يحترم أولئك الرسل ويحبّهم، لاختيار الله لهم كرُسُل وأنبياء، فقد كفر بما أُنزِل على محمد صلى الله وبارك عليه وآله.

فقد جاء خاتم النبيين مُصدّقاً لكل ما جاءت به تلك الرسل ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[5]، ولا تعني الهَيمَنة الإلغاء لِما سبق من تلك الكُتُب والديانات، إنما تعني الوُسع والشُموليَّة لِما تضمَّنته ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[6] ، ليكون النبي الخاتم رسولاً لسائر الناس السابقين واللاحقين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[7] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[8] لأنّ مَن آمنوا بتلك الكتب السابقة قد آمنوا بما تضمنه كتاب محمد صلى الله وبارك عليه وآله، فهم مسلمون مِن قَبل بعثته وهو رسولهم إن أدركوا أو لَم يُدركوا زمان رسالته، فالرسل السابقون هم نواب عنه وأخذ الله عليهم العهد والميثاق للإيمان به ونصرته قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[9]. فما جاء النبي، محمد صلى الله وبارك عليه وآله، رافضاً ونافياً لكل ما سبق من الدين الذي كان عليه الأنبياء والرسل السابقين وكتبهم، إنما جاء مُصَدِّقاً لهم، ولا يكون التصديق إلا على الحقّ، ولا يَقبَل الإسلام ما يُخالفه، قال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[10]. فجاء دين محمد، صلى الله وبارك عليه وآله، مؤكداً صحةِ إسلامِ ما سبق من الدين اليهودي والمسيحي – تعالى الله أن يُنزل ديناً معيباً – ولكن بعضاً من أتباع أولئك الرسل يحرفون الكلم عن مواضعه، للمغالاة في دينهم ولعصبيتهم الدينية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ﴾[11] لعصبيتهم ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ...﴾[12] ومُبيّناً لهم ما اختلفوا فيه، قال تعالى : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

---

1 سورة آل عمران : 19
2 سورة آل عمران : 85
3 سورة المائدة : 46
4 سورة المائدة : 48
5 سورة المائدة : 48
6 سورة النحل : 64
7 سورة سبأ : 28
8 سورة التوبة : 33
9 سورة القصص : 52-54
10 سورة آل عمران : 85
11 سورة البقرة : 91
12 سورة البقرة : 91

الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[1] حتى يُقِيموا الرسالة على حقيقتها لينالوا الكرامة من الله .. قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾[2]. فلم تأتِ المسيحية لإلغاء اليهودية ولا الإسلام المحمدي لإلغاء المسيحية واليهودية، بل جاء مُصَدِّقاً لمن كان قبله من الرسل وكتبهم التي أُنزِلَت عليهم من الله لأُمَمِهم، ولكن كثيراً مِن أتباع الرسل تَشَبَّعوا بالعصبيَّة الدينية التي تَنُمّ عن الجهلِ بوحدةِ الرسالة والتفريق بين الرُّسُل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾[3] فكل من يقول ليست اليهود على شيء وليست النصارى على شيء فقد قال مثل قولهم، فهو من الذين لا يعلمون، لتَعَصُّبِه لرسولِه وإثباتِه التفرقة بين الرُّسُل. فكل أمة مسئولة عن كتابها وتُدعى إليه، لا إلى تركه وإتباع غيره، فالمصدر الذي أتت منه هذه الكتب كلها واحد، تعالى الله أن ينزل خللاً في أيّ منها، فكلها مقدسة يجب الإيمان بها ولا يوجد خلل في أصلها إلا ما أحدثه البشر ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[4] فما أنزل الله من الكتب حقّ لا يبطله الزمان والإنسان، ولكل أمّة الحق في التمسُّك بما أنزل الله على رسولها إليهم والتحاكم إليه إلى أن تلقى الله ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوه﴾[5] وإن لم تفعل فالله يحكم بينهم يوم القيامة، وليس لأحد الحقّ في إجبارهم على فعلٍ أو ترك .. ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[6] .. ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ﴾[7]؛ فالله سبحانه يؤكد في القرآن العظيم أن التوراة فيها حكم الله وكلمة حُكم هنا تعني الشريعة، أي القانون ولا تعني الملك أو السلطان قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[8] أي تشريعاً، وقال تعالى في موسى عليه السلام ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[9] ولا تعني كلمة "حكماً" هنا سلطاناً أو مُلكاً، فلا تكون إلا بمعنى "شريعة"، وقال تعالى : ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾[10] أي شريعةً، إذ أنه لم يكن حاكماً ولا صاحب سلطان، بل قال لقومه ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[11]، فلا يَنظر أحد إلى التوراة بعد هذا بغير الاحترام والتقدير والتقديس، إن كان يؤمن بما أُنزِل على محمد صلى الله وبارك عليه وآله. ولا تعني الآية ﴿...وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ﴾[12] إقامة دولة دينية يهودية، فلا يوجد فيما أَنزَل اللهُ لرُسُلِهِ أمرٌ بإنشاء دولة، ولكنَّ التَّعَصُّب الديني، الذي يَنشأ من التفريق بين الرُّسُل، وحُب السلطة هما اللذان يَدفَعا أتباعَ الدِّينِ المعني لإنشاءِ دولةٍ باسم الدين.

وإذا كان كُلّ الرسل صلوات الله عليهم جاءوا بالدين، أي بالإسلام كما قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[13]، فذلك يعني أن الدين، أي الإسلام، عند كلِّ الأنبياء ما هو إلا شرائعَ بُعِث بها أولئك الرسل لخلقِ المجتمعِ الفاضل وكرامة الإنسان، الذي هو القصد من إرسالِ

1 سورة النحل : 64
2 سورة المائدة : 66
3 سورة البقرة : 113
4 سورة الجاثية : 28
5 سورة الحج : 67
6 سورة المائدة : 47
7 سورة المائدة : 43
8 سورة المائدة : 50
9 سورة الشعراء : 21
10 سورة الأنبياء : 74
11 سورة هود : 80
12 سورة المائدة : 43
13 سورة الشورى : 13

الرُّسُل، ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[1] من حيث وحدة الرسالة في الشرائع المُنزلة. لكنّ التفضيل بينهم فهو وارد – وهو غير التفريق - ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[2]، أما مِن حيث ما جاءوا به من عند الله، فقد قال تعالى : ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3]. وجاءت الرسالةُ الخاتمة للرسول الأعظم محمد صلى الله وبارك عليه وآله للإقرار بما سبق من الرُّسُل وصِحَّة كتُبِهم وتصديقها ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾[4]، ولتبيان ما كان من اختلاف أُحدث من أتباع الرسل في تلك الرسالات ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ...﴾[5] ولتوضيح الحقّ فيها ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[6] وهي الهيمنة ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ...﴾[7]، لبيان الأفضلية ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾[8] وليُظهره الله على الدين كلّه؛ قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[9] ليُتَمِّم صالح الأخلاق، التي هي الغاية – قال صلى الله وبارك عليه وآله **"إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"**[10]. فأخذ الله العهد على كلِّ الرسل والأنبياء للإيمان بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله ولِنُصرته، لهيمنة رسالته، ولحبّه له، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[11]. فمَن لم يَعلَم لماذا كانت بعثة محمد صلى الله وبارك عليه وآله تحديداً فقد جهله وجهل ما جاء به، سواء أكان من الذين آمنوا أو الذين هادوا أو النصارى أو الصابئين؛ فإن بمَعرِفة مقصد البعثة تنتهي العصبية الدينية والتحزُّب والبغضاء.

فالعصبية الدينية الموجودة اليوم هي تقنين للعداءات وتبرير للحروب والغزو المتبادل، ومُنتِجة للبُعد عن منهج الله القائم على الحب والمعرفة وحرية الإنسان. أما وحدة الرسل والرسالات فهو أمرٌ واضح في كتب الله يأبى التفريق ويُثبِت التفضيل.

---

1 سورة البقرة : 285
2 سورة البقرة : 253
3 سورة البقرة : 136
4 سورة المائدة : 48
5 سورة النحل : 64
6 سورة النحل : 44
7 سورة المائدة : 48
8 سورة البقرة : 253
9 سورة التوبة : 33
10 مسند أحمد
11 سورة آل عمران : 81

دعوة الرسول

لم يُرسل الله سبحانه وتعالى نبيَّه محمداً صلى الله وبارك عليه وآله ليُنشئ دولةً - لأنّ الرسالة ليست إنشاء دولة - وإلا لكان اكتمال إنشاءِ الدولة هو الغاية والفراغ من الرسالة. ولم يرسله ليُكَوّن حكومةً لِنَشر الرّسالة؛ فإنَّ للحكومة عمراً لا تُجاوزه، ولا يمكن أن تبقى إلى قيام الساعة. ولم يُرسِله لأن يُقيم مُلكاً دنيوياً مُتَسَلِّطاً للتوارُث الأُسَري؛ فقد رَفَضَ المُلك أساساً حينما عُرِضَ عليه في بداية الدعوة بمكة، كما أنه لَم يوصِ بقيام دولة أو إمارة. وليس هناك غموضٌ أو ارتياب في أمرِ الرسالة، التي هي ما أنزَلَ الله من الشرائع، ولا في كيفيَّةِ نشرها، فلم يَترُك الحق سبحانه الأمر للاجتهاد، بل حدَّد ما على الرسول صلى الله وبارك عليه وآله في أداء الرسالة وكيفيَّته والمطلوب منه تحديداً فقال تعالى : ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾[1]. وفي هذه الآية يكمُن سِرّ الرسالة العظيم، فالله سبحانه قد تكفَّل بدعمها وإقامتها وإظهارها، دون حاجة لِدعمٍ بشري مادي. ورَفَعَ عن كاهل الحبيب صلى الله وبارك عليه وآله عبء ما تقوم به الدعوة وسبيل نشرها وانتصارها وهيمنتها لحبه له قال تعالى : ﴿**طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[2]؛ لأنّ الحقّ يقوم بنفسه ويحتاج إليه غيره لينتصر به، ولا يحتاج هو إلى غيره، لذلك قال الإمام علي عليه السلام "**أعرف الحق، تعرف أهله**" وقال تعالى : ﴿**قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ**﴾[3]. ولذلك لا يصحّ أن يُنسب إلى النبي صلى الله وبارك عليه وآله حديث "**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ**"[4] لأنّ الإسلام هو الحق، والحقّ لا يُعَزُّ بالرجال، بل العكس. والحديث كذلك يُثبت حُب الله لأبي جهل وعمر بن الخطاب – وهُما كافران حينذاك – إلا أنّ أحدهما أحَبُّ إلى الله من الآخر! فكيف يكون الحُبُّ لكافر والله سبحانه يقول ﴿**...فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾[5]؟ ثم إذا كان هناك حاجةٌ إلى الرجال، لماذا لم تُطلَب العزة بالرجلين معاً؟ وإذا كان هناك رأيٌ بأن النبي صلى الله وبارك عليه وآله كان يَعلَم أن أحدهما سيكون مع الإسلام والآخر مُخالِفاً، فإنه لا تبقى مع هذا العِلم حاجةٌ للدُعاء أصلاً.

وإذا كان ﴿**وَمَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ**﴾[6] كما حدد الله سبحانه، فهو ليس بحاجةٍ لمن يساعده في هذا البلاغ، فقوة الدعوة تكمن فيها ولا تحتاج إلى أحد الرجُلين، ولا لأي قوة خارجية أو حكومة لدعمها، فذلك ظنّ الذين لا يؤمنون. وما جاء إظهار الرسالة بالضعف وحاجتها إلى الرجال وإلى قوة خارجية إلا من أولئك الذين يرون أن إقامة الدولة هي الأَولى والأهم، وأنّ الدعوة لا تقوم إلا بالسلطان، خلافاً لما جاء من عند الله سبحانه، وما ذلك إلا ضعفاً في الإيمان، وشكاً في الدعم الإلهي، وقيام الحق بنفسه، أو حُبّاً للسُلطة التي نفاها الله سبحانه وتعالى عن رسوله العظيم ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾[7]، أو تعصُّباً بِجَهلٍ يَرفُضُ قبولَ الدينِ عند رسولٍ آخر، ﴿**... كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾[8]، وهو إثبات التفرقة بين الرُّسُل.

ولا يحقّ لأحد أن يقول إنّ إقامة الدولة قد يدخُل في كيفية هذا البلاغ، فإن الدولة تقوم على فرض سلطتها على الناس، وهو الإكراه الذي يتنافى والإسلام؛ كما أنّ تلك الآية الكريمة عن قيام الرسول بالإبلاغ فقط، لا تنفي إكراه الناس على الإسلام فحسب، بل تمنع حتى الحرص على قبول الآخر لما تدعوه إليه، لأنه ﴿**لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾[9]. وكيفيَّة البلاغ أيضاً قد حدّدها الله سبحانه ولم تُترَك لاجتهادٍ كذلك، فقال تعالى : ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**

1 سورة النور :54
2 سورة طه : 1
3 سورة الحجرات : 17
4 سنن الترمذي ومسند أحمد
5 سورة آل عمران : 32
6 سورة المائدة : 99
7 سورة الغاشية : 22
8 سورة البقرة : 113
9 سورة البقرة : 272

﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1] فلا خروج عن هذا الأسلوب في أداء الرسالة. وما كانت الرسالة سبباً ليكون النبي صلى الله وبارك عليه وآله حاكماً أو مُتسلِّطاً لإكراه الناس عليها، ولم يتَّخِذها صلى الله وبارك عليه وآله سَبَباً لذلك، ولا ينبغي ذلك لأحدٍ مِن بَعده مهما كانت المُبَرِّرات، والتظاهر بالحفاظ على الدين أو نشره.

ثُم بعد البلاغ من الرسول صلى الله وبارك عليه وآله للناس بما شرعه الله لهم من الشرائع للتعامل في الأمور الاجتماعية فيما بينهم، وفي الأمور التعبُّديَّة الشخصيّة مع خالقهم بالأسلوب الذي حَدَّدَهُ الله سبحانه وتعالى في التبليغ بالكيفية التي أمر بها؛ فهل هناك بعد هذا أمرٌ للرسول صلى الله وبارك عليه وآله بمتابعة الناس لتنفيذ هذه الشرائع؟ يمكننا القول بالإيجاب، ولكن المتابعة أيضاً وضَّحها الله سبحانه وتعالى ولم يتركها للاجتهاد، وهي لا تعدو تذكير المؤمنين فقط، قال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[2]؛ أما مَن كفر، برفضه للدين، فلا سُلطةَ عليه، ويُترَك وشأنه ﴿وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[3]، فالله سبحانه هو الذي يتولّى جزاءه في الآخرة، وليس في هذه الدنيا، ما لم يُبادِر بالاعتداء على رسله، قال تعالى : ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[4] فإنّ عذاب الأمم في الدنيا لم ينزل عليهم بسبب كفرهم، بل لأنّهم همّوا بإيذاء رسلهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[5] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾[6] لينتفي الإكراه والتَسَلُّط والعقاب في الدنيا باسم الدين على من يكفر أو يرفض تنفيذ الأوامر الشرعية التعبُّديَّة، اجتماعيةً كانت أو شخصيّة، وأعني بالتعبُّديَّة الاجتماعية الالتزام بالشرع – أي بما أنزل الله - في المعاملات كالبيع والجنايات والإرث وعموم العقود. وأعني بالشخصيّة تلك التي بين العبد وربّه من العبادات كالصوم والصلاة والحج والزكاة. والزكاة عبادةٌ شخصية ولكنها تتعلق بالمجتمع مِن حيث إنفاقُها لا من حيث إخراجُها، ويجب على المؤمن إخراجها و يجب ألّا يُكره على ذلك كما يحصل من جَهلَة جامعي الزكاة، ويظنّونه تمسُّكاً بالدين! وما جاء هذا الفهم الخاطئ في الإكراه في أخذ الزكاة إلا من أولئك الذين ظَنّوا أنّ الإسلام هو الدولة. أمّا قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[7] فلا يُفهَم منه الإكراه في أخذِ الصدقة على الإطلاق، لأنّه لا إكراه في الدين أصلاً كما أَمَر الله سبحانه. فكيف يجوز الإكراه في جزءٍ منه كالزكاة؟! إنَّ ما يُفهَمُ من الآية هو استلام ما يُخرجونه طواعيةً مِن أموالِهم مِن زكاة؛ قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[8]، فالله سبحانه لا يأخذها كِفاحاً وقَسراً، بل المقصود هو ان الله سبحانه هو الذي يأخذها حين يُخرِجها العبدُ طواعية. وبَيَّن النبي صلى الله وبارك عليه وآله عَدَم أَخْذِ الزكاة بالإكراه وذلك برفضه قبولها ممّن سبق وأحجم عن إخراجها، وجَعَل ذلك عقوبةً له[9]. وهذا يوضح أنّ التقصير، أو الامتناع عن أداءِ الأمور التعبُّدية الشخصية تكون المُحاسَبة والعقاب عليه عند الله في الآخرة فهو الحاكم بشريعته، وحكمه مؤجل – وإن شاء عجل به - ولا وكيل عنه في الدنيا، ولا يكون التقصير في الدين أو رَفضُه سبباً لحاكم أو أمير ليتسلط به على إنسانٍ في هذه الدنيا لأنّ هذه العبادات بين العبد وربّه. كما أنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله أمر عاملَه للزكاة أن يُخبِر الناس أنّ الله قد فرض عليهم صدَقَة **"تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم"** فإن هم أطاعوا له بذلك، **"فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنّه ليس بينه وبين الله حجاب"**[10]، وأمَرَهُ بِرَدِّها على فقرائهم لا الإتيان بها إليه. وأَخْذُ النبي للزكاة لم يكن لِكَونِه حاكماً أو سلطاناً - حيث أنه لم يؤمر بغيرِ التبليغِ بالدين كُلِّه الذي ينعدمُ فيه الإكراه - إنما

---

1 سورة النحل : 125
2 سورة الغاشية : 21-22
3 سورة الكهف : 29
4 سورة الغاشية : 23-26
5 سورة غافر : 5
6 سورة إبراهيم : 13
7 سورة التوبة : 103
8 سورة التوبة : 104
9 كما جرى لثعلبة بن حاطب الأنصاري - فيض القدير
10 صحيح البخاري

لأنه هو الأقدر على توزيعها، كما أنها مُحرَّمةٌ عليه وعلى آل بيته صلى الله وبارك عليه وآله. ولم يُجبِر أحداً على إخراجها حتى نزول قوله تعالى ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[1]. فسدّ بذلك باب التشريع في الدين – لاكتماله – ومَن يرى غير ذلك فإنه يتّهم النبي صلى الله وبارك عليه وآله بعدم إكمال تبيين ما أُرسِل به، وينظر إلى مَن هو أرجح منه عقلاً ليُضيف أو لِيَنتقِص مما ترك النبيُ الناسَ عليه!! وليقول إنّ إكراهَ الناسِ وإجبارِهم على دَفع الزكاة من الحاكم أفضلُ مما فَعَلَهُ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله في عَدَمِ إكراهِ الناس على دَفعِها!! وليعلم أنّ ذلك ليس هو الإسلام الذي جاء به محمدٌ صلى الله وبارك عليه وآله، وسَمِّهِ ما شئت؛ لأنه تشريعٌ مِن حاكمٍ مدني، وليس تشريعاً مِن النبي المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله. وليست الزكاة هي بيت مال المسلمين – كما يحلو تسميتها بذلك مِن أصحاب السلطان ليقولوا إنّ الإسلام دولة و ليجعلوا للحاكم حقّ التصرف في مال الزكاة وصرفه في غير ما حدده الله سبحانه باجتهادٍ مِن هواهم ويظنونه من الدين وهو تعدٍ على حدود الله وشرعه – إنما هي حقُّ الفقراء المنصوصِ عليهم في كتاب الله لا غير، ولا اجتهاد مع النص المُحَدّد.

1 سورة المائدة : 3

لا تتعدى المتابعة على القيام بشرائع الرسالة التذكير، قال تعالى : ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]. أما الإكراه على التنفيذ، والسيطرة على الناس مِن أجل دعوتهم إلى الله فهي أمورٌ لم يشرعها الله سبحانه ولا أصل لها في رسالة محمد صلى الله وبارك عليه وآله. ولا يُمكن القول بأنّ الإكراه والإجبار من أساليب الدعوة بحالٍ من الأحوال، إنما هو تسلُّط وقهرٌ لا مجال فيه لعمل العقل بحرية بالقَبول أو الرَّفض، كما في الدعوة والتي هي التبليغ والتذكير لا أكثر قال تعالى : ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾[2]. ولم يُعطِ الله سبحانه رسوله صلى الله وبارك عليه وآله وأعلم الناس بدينه ورسالته حق التسلّط على الناس، ليُكرههم على ما جاء به من عند الله، لأنّ الإكراه لا يدلّ على حُسن الخُلُق وهو أبعد ما يكون عن عظيمها. فخَلا طبع النبي صلى الله وبارك عليه وآله مِن الإكراه، مُتَناسِباً لِما أُرسِلَ به مِن الدين. فكيف يجوز لغيره – على نقصِ علمِهم – إكراه الناس على الدين؟

فخُلِقَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله فاقداً لِغلظة القلب ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾[3]، مُتَدثِّراً بأخلاقٍ بَلَغَت مِن العَظَمَةِ أن مَدَحَهُ بها مَن خَلَقَه ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[4] - ولذلك قيل له ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾[5] بعظيم الأخلاق - التي تنعدم فيها الغلظة المطلوبة للإنذار - لابد لك من التّحلّي والتّجلّي بلبس نوع من الجلال لتُنذر الناس ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾[6]. فالأمر يتعلق بلباس التقوى قال تعالى : ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾[7]، لا بكثير من الملابس والأغطية خوفاً ووجلاً من المَلَك كما يرى البعض الذين جهلوا قَدرَه صلى الله وبارك عليه وآله، ناسين أو مُتَناسين قول الله جلَّ شأنه ﴿**إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**﴾[8]. ويرى البعض – جَهلاً – أن هِجرة الرسول صلى الله وبارك عليه وآله ليلاً ما كانت بمستوى شجاعة مَن هاجَرَ نهاراً وقال **"من أراد أن تثكله أمه، ويوتم ولده، ويرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي"**[9]، بينما المُحَقِّقُ في الأمر يَجِد أن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله خَرَجَ على أربعين رجُلاً يريدون دمه، فَحَثى التُراب على رؤوسهم جميعاً، الواحد تلو الآخر. فهل يدُل ذلك على الخوفِ منهُم؟! وأي شَجاعةٍ تُطلَب في مِثلِ هذا الموقِف أكثر مما فَعَلَه رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله؟ ليَعلم مَن جَهِل أن لا أحد يفوق النبي صلى الله وبارك عليه وآله شجاعةً، وقال سيدنا علي عليه السلام **"ثم كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه"**[10]. وليَعلم كذلك مَن جهل قَدر رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله أنَ كُل ما يَفعله النبي صلى الله وبارك عليه وآله إنما هو رحمة للعالمين. فكَبُّ التُراب على رؤوسهم كان رحمة بهم، إذ أنزَلَ عليهم النوم حتى لا يستيقظوا فيسعوا لأذى النبي فيأخُذهُم الله أخذَ عزيزٍ مُقتَدِر، فإنّ الله سبحانه يغار على رسوله حتى مِن سقوط الذُباب عليه. فقد كان مِن عظيم خُلُقِه أنه إذا قيل له ادعُ على الكفار قال: **"إن الله تعالى لم يبعثني طعّاناً ولا لعّاناً، ولكن بعثني داعيةً ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"**[11]. فهجرة النبي صلى الله وبارك عليه وآله لم تكُن عن خوف، فإن الله نفى الخوف عن أنبيائه، ولم تكُن لغرض إنشاء دولة في المدينة لِنشر الرسالة، إذ ليس عليه إلا البلاغ؛ لذلك فإن هجرته كانت رحمةً لأهل مكة حتى لا ينزل الله عليها العذاب ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ**

1سورة الذاريات : 55
2سورة الشورى : 48
3 سورة آل عمران : 159
4 سورة القلم : 4
5 سورة المدّثر : 1
6 سورة المدّثر : 2
7 سورة الأعراف : 26
8 سورة النمل : 10
9 أسد الغابة
10 مسند أحمد
11 شعب الإيمان للبيهقي

هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[1]؛ لأن الله سبحانه وتعالى يُنزل عذابه على الناس إذا هموا بإيذاء رسله، قال تعالى : ﴿**...وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾**[2] وقال تعالى : ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّـكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾**[3]. وكذلك كانت هجرته رحمةً لأهل المدينة الذين استقبلوه فرحين بمقدمِه الشريف، فسبقوا المهاجرين بالإيمان ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾**[4]، كذلك كانت رحمةً على الأرض التي ضمَّته صلى الله وبارك عليه وآله حيثُ صارت أفضل من جنات الله العُلى. أما ما جاء عن خوف موسى عليه السلام من الله فسببه أنه سبق أن قتل نفساً قبل الرسالة، فكان الاستثناء الإلهي ﴿**...إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[5].

فإكراه الناس وإجبارهم على الدين من قِبَل السلطان يعني أن مَن لم يمتَثِل للأمر السُلطاني سيلقى جزاءه بالحساب والعقاب في هذه الدنيا مِن الحاكِم، ولا يُترك أمرُه لله سبحانه. فالحاكم المُكرِه للناس على الدين يُحاسِب ويُعاقب كل من لا يستجيب له، ويكون بذلك قد أعطى نفسه الحقّ في الدنيا في ما لله في الآخرة من الحساب والعقاب للعباد، ونصَّب نفسه وكيلاً عنه لإنزال العقاب الإلهي لمن يرفض دعوته للدين – وتلك الوكالة لم يُعطِها الله سبحانه حتى لنبيه الكريم؛ قال تعالى : ﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾**[6]. فلينظر هذا الحاكم المُكرِه للناس على الدين كيف اغتَصَب حق الله في الآخرة ليَتَألَّه به في الدنيا ﴿**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾**[7]!!

إنّ إكراه الناس على أمرٍ ما لا يكون إلا من حاكمٍ أو سلطان، والرسول صلى الله وبارك عليه وآله لم يُكرِه أحداً على أمرٍ قط حتى لمن كان يخدمه لم يقل لشيءٍ فعله لم فعلته أو لشيء تركه لم تركته، لأنه لم يكُن حاكماً ولا سلطاناً، بل رَفَض المُلك حينما عَرَضَ عليه قومه أن يكون ملِكاً عليهم ويترك الدعوة إلى الله، فأكَّد لنا بذلك التبايُن بين المُلك والدين وعدم وجود صِلةٍ بينهما؛ كما رفض ما عُرِضَ عليه من مالٍ ليكون أكثرهم مالاً. فقام بالرسالة دون وجود ما لا يمكن قيام الدولة إلا بهما، ألا وهما المال والسلطان. فبيَّن صلى الله وبارك عليه وآله منذ البداية أنّ الدين لا يقوم على السلطان ولا على المال؛ إذ ليس هو دولة. وليست أموال الزكاة مال الدولة أو السلطان ليتصرف فيها حسب اجتهاده بل هي مال الله يُرَدُّ على عباد الله الذين حددهم سبحانه وتعالى وبيَّنهم رسوله صلى الله وبارك عليه وآله. فأينما وُجِدَ الإكراهُ فلا وجود للدِين به.

---

1 سورة محمد : 13
2 سورة غافر : 5
3 سورة إبراهيم : 13
4 سورة الحشر : 9
5 سورة النمل : 10 - 11
6 سورة الأنعام : 107
7 سورة الكهف : 104

ما هو حكم الله ؟

أنزَل الله التشريعات الإلهية ليحتَكِم إليها الذين يرتضونها من الناس، ولم يؤمر صلى الله وبارك عليه وآله بإنشاء دولةٍ لرعاية تنفيذها. والتشريعات هي التي أَرسَلَ الله بها جميع رُسُلِه – وهي حكم الله- ليُبَلِّغوها للناس لا أكثر و دونِ إكراه، لا ليُنَصِّبوا أنفسهم حُكاماً – كما قال مَن جهِل الدين - "موَقِّعين عن رب العالمين" نيابةً عنه ويفرضوا على الناس سيطرتهم لقبولها بسبب علمهم بالدين وقربهم من الله تعالى ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ**﴾[1]؟ وأمَرَ سبحانه أتْباعَ رُسُلِهِ صلوات الله عليهم بالتحاكم بما جاء في كتبهم - التي ارتضوها برغبتهم - رحمةً بهم، لتربيَتهم وترقيَتهم للوصول بهم إلى سُموّ الأخلاق التي يقوم بها المُجتمع الفاضل، وإلا كانوا من الكافرين، وإن كفروا فإنّ حسابهم على الله في الآخرة وليس لأحد الحق في إجبارهم على شيءٍ من الدين في هذه الدنيا ﴿**...وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[2].

قال تعالى : ﴿**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[3] وهذه تُفيد صلاحية الإنجيل للمسيحيين للتحاكُم بما أنزَل الله فيه، وأنّ المسيحيَّة ليست ديانةً مُلغاة بسبب قيام بعثة محمد صلى الله وبارك عليه وآله - ﴿**كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[4] ويرون أنها أصبحت ديانة الكُفر! وكأنها لم تأت من عند الله ولا يجب الإيمان بإنجيلها! - فأتباع عيسى عليه السلام مُسلِمون كما قال تعالى في القرآن العظيم، وجَعَل الله مكانتهم فوق الكُفار إلى يوم القيامة -وليس فقط إلى وقت بعثة محمد صلى الله وبارك عليه وآله - ولا يحقّ لأحدٍ أن ينزع عنهم صفة الإسلام التي وصَفَهُم بها الله سبحانه ويلبسهم صفة الكفر بغير وجه حق؛ وإيمانهم بما أُنزِل على عيسى عليه السلام هو إيمانٌ بما تضمَّنه كتاب محمد صلى الله وبارك عليه وآله، لأنه صَدَّقَ على ما جاء في الإنجيل وحوى كُل ما فيه، فهم مِن قَبلِه مسلمون ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**﴾[5]؛ إلا مَن لم يؤمن منهم بعيسى عليه السلام نبياً ورسولاً .. قال تعالى : ﴿**إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[6].

أما حديث "**من بدل دينه فاقتلوه**"[7] الذي لا يمكن قبول نسبته للنبي صلى الله وبارك عليه وآله فلا تقوم به حُجَّة لأصحاب العنصرية الدينية الذين يرون التفرقة بين الرُّسُل وفي الإيمان بهم وكُتُبهم المُنزَلة عليهم ويُكَفّرون أتباع غير رسولهم ﴿**وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾[8]، فهُم أصحاب التفرقةِ والغلو في الدين، الأمر الذي نهى الله عنه حيث قال تعالى : ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ**﴾[9]، ذلك لأنهم قالوا ﴿**كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ**﴾[10]، وكذلك قال تعالى لقوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله ﴿**وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[11] حتى لا يقعوا في العصبية الدينية كما فعل الذين من قبلهم - فيرفضون الديانات السابقة ويُكفّرون أتباعها رغم وصف الله تعالى لهم بأنهم مسلمون - ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾[12]

1 سورة النحل :35
2 سورة الكهف : 29
3 سورة المائدة : 47
4 سورة البقرة : 113
5 سورة القصص : 52-54
6 سورة آل عمران : 55
7 صحيح البخاري
8 سورة النساء : 150
9 سورة المائدة : 77
10 سورة البقرة : 135
11 سورة العنكبوت : 46
12 سورة العنكبوت 47

بينما نبي اليهود ونبي النصارى عليهما السلام وهما من أولي العزم لم يأتيا بغير الإسلام الذي جاءت به كل الرسل - ﴿**فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾[1]. فالدين الذي جاءت به كُل الرُّسُل يَجمَع ولا يُفرِّق، ويدعو للمحبة لا البغضاء والتحزُّب والتكفير. فالذين يسعون للعُنصرية الدينية ﴿**...وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا**﴾[2]؛ قال تعالى : ﴿**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾[3]، ووَصَفَ النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله العُنصرية بأنها مُنتِنة وقال **"دعوها فإنها منتنة"**[4]. وما جاءت الرسل مِن عند الله بدياناتٍ يناطِحُ بعضها بعضاً، تعالى الله عن ذلك لأنّ ذلك مدعاةً إلى القتال الذي يُهلِك الحرث والنسل، وإلى كراهية الأُمَم لبعضها بدلاً عن المحبة وحُسن المعاملة اللذين جاءت بهما الأديان؛ لذا يجب النظر في هذا الحديث أولاً إلى كلمة "الدين" التي هي الإسلام - وهو ما جاءت به كلّ الرسل - فلا يكون معنى "من بدّل دينه" هو الذي تحوَّل من اتّباع رسولٍ إلى آخر لأنه لا فرق بين الرسل الذين جاءوا كلهم بالإسلام، وإلا كان مَن ترك الديانة المسيحية ودخل في دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله قد بدَّل دينه ويجب قتله؛ كذلك يجب قتل مَن ترك الديانة المسيحية ودخل في الديانة اليهودية، وأيضاً قَتْل مَن تَرَك الدين اليهودي ودخل في دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله لأنه بدل دينه! ولذلك فلا يُقتل أحدٌ - بحسب الحديث المنسوب - بسبب أنه "بدل دينه" حتى ولو كان معنى "بدل دينه" هو أنه كَفَرَ بجميع الرسل وكتبهم، وعَبَدَ هُبَل واللات والعُزّى؛ فلا يجوز القتل أصلاً بسبب الكُفر إلا لمُحارِب - وقبل أن يؤسَر - فتَنتَفي الحُجَّة بالحديث بكل المقاييس قال تعالى : ﴿**...وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[5].

والمرء لا يُبدِّل دينه إلا إذا رأى ما هو أفضل منه؛ وإذا كان هناك تمايزٌ بين الأديان، فالذين يرون أفضلية ما هم عليه من الدين يجب ألا يُكرِهوا عليه أحداً لأنَّ الأفضل لا يحتاج إلى أن يُجبَر عليه الناس، بل هو جاذِبٌ للناس لأفضليته. فيجب عليهم أن ينظروا لماذا يلجأ الناس إلى غير دينهم؟ فلابد أن يكون هناك أمرٌ مُنفِّر لا يليق ممن يتبعون ذلك الدين، اضطرَّ الناس إلى تركه واللجوء إلى غيره، إذ يستحيل أن يكون هناك عيبٌ مُنَفِّرٌ في دين الله الواحد الذي أنزله على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم. فالنظر يجب أن يكون في سلوك الذين يعتنقون ذلك الدين، فإنّ الدين عند الله واحد وهو الإسلام، ولكن أتباع الرسل هم الذين – بسلوكهم وأخلاقهم – يُنَفِّرون الآخرين أو يُحبِّبونهم فيه، وهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

والحُكمُ بما أنزَلَ الله لا يعني الدولة أو السُلطة السياسية، بل يعني التعامل طواعية بما شرع الله سبحانه بين الناس، فإن لم يفعلوا خرجوا عن حكم الله، وليس لأحد الحق في التسلط عليهم بعدم التزامهم بحكم الله أي بشرعه ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾[6]، وأمْرُهم إلى الله ليحكم بينهم في الدار الآخرة. فالحاكم هو الله بِشَرعِه والجزاء عنده في الآخرة، وتفسير "الحكم بما أنزل الله" أنه الدولة ليس صحيحاً فقد قال تعالى : ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ**﴾[7] ومعلومٌ أنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله ما كان حاكماً ولا سلطاناً ولا أميراً، بل هو الشفيع للمذنبين عند المَلِك الحقّ الحَكَم العَدل في الدنيا والآخرة، وبالتالي لا يكون معنى قوله تعالى ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ**﴾[8] إلا القضاء؛ قال تعالى : ﴿**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ**﴾[9] ولا يعني حُكم الله إقامة دولة، فَلَم يُنشئ موسى عليه السلام دولة يهودية حتى لا يكون الدين محصوراً في دولة، وبالتالي كل من أنشأ دولةً باسم الدين فقد خالَف ما أنزل الله، ولا تعني الآية إعطاء الحق لليهود

---

1 سورة العنكبوت 47

2 سورة النساء 150-151

3 سورة البقرة : 285

4 صحيح مسلم

5 سورة الكهف : 29

6سورة الشورى : 48

7 سورة المائدة : 49

8 سورة المائدة : 49

9 سورة المائدة : 43

بإنشاء دولةٍ باسم الدين اليهودي، بل تُشير الى التشريع الموجود في التوراة الذي صدّقه ما جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله، ولذلك لا يوجَد سبب يدعوهم للّجوء إلى رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله طلباً لحُكمٍ غير الذي في كتابهم التوراة. فحُكمه تعالى لا يختلف في التوراة والإنجيل والقرآن، **﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[1]. كذلك لا يُفهم من الآية **﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ﴾**[2] قيام دولة باسم الدين المسيحي. فالواضِح من هذه الآيات أنّ حُكم الله هو التشريعات التي أنزلها الله تعالى في كُتُبِه المُقدَّسة؛ قال تعالى : **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾**[3] فالحكم بما أنزل الله هو القضاء بالتشريعات المُنزَلة من الله تعالى في كُتُبِه المُقدسةُ وليس الحكم السياسي باسم الدين.

قال تعالى : **﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[4]. هذه تشريعات التوراة التي عند اليهود **﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ﴾**[5]، وتضمَّنها القرآن المجيد، وهي التي يتحاكم إليها اليوم من هو على دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله. ولا أوضح من هذا لتبيان أن ما أنزل الله في كل الأديان هي الشرائع وهي حكم الله، والحُكم بما أنزل الله هو القضاء بها – لا إستغلالها للإمارة والتسلُّط السياسي؛ قال تعالى : **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾**[6]. فالناسُ هم الذين يُحَكِّمونه فيما شَجَر بينهم، وليس هو المتسلِّط عليهم بِحُكمِه لأنه لم يُعط نفسه سُلطة إجبار أو إكراه عليهم بالدين، فيقبلوا ما يقضي به صلى الله وبارك عليه وآله دون حرج **﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾**[7].

فسُلطة النبي صلى الله وبارك عليه وآله في القضاء بما أنزَل الله – أي حُكمه بين الناس - جاءت من عند الله تعالى الذي أمر الناس الذين آمنوا برسالته عن طواعيةٍ وحُب، بالتسليمِ التّام له والاحتكامِ إليه وقَبولِ حُكمِه وقضائه بلا حرج في أنفسهم، لأنه معصوم. فَهُم الذين يُحَكِّمونه وليس هو الذي يتحكَّم فيهم من عنده أو يتسلط؛ بل الله هو الذي يمدّه بسُلطان ينزله عليه **﴿..لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾**[8] ورغم هذا السلطان الإلهي يُقال له : **﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾**[9]. لذلك لم تكن له شرطةٌ لتنفيذ حُكمِه وقضائه. ولكن مَن جاء بعد النبي صلى الله وبارك عليه وآله لم يجد بُدّاً من ذلك لأن سُلطتهم سياسيةٌ اختلَقوها بمَن حولَهم من الناس، ففرَضوها وأجبروا الناس على قبولها، واتّخذوا لها الشرطة والعسس وسموها ديناً!!

فالنبي صلى الله وبارك عليه وآله ليس مُجتَهِداً فيما أُنزِل إليه مِن تشريعاتٍ ليُبيّنها للناس؛ بل هو المُشَرِّع بأمر الله. فلا يُنسَب إليه خطأٌ في أداء رسالته واتّباع ما أنزَل الله **﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾**[10]. ولا مجال للحديث عن نِسبة الخطأ للنبي صلى الله وبارك عليه وآله وعَدَمِه؛ فالخطأ يُعرَف بالقياس على الحق، والنبي صلى الله وبارك عليه وآله هو حقّ **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾**[11] وهو الذي يقوم بعمل الحق وتشريعه،

---

1 سورة النحل : 64
2 سورة المائدة : 47
3 سورة المائدة : 44
4 سورة المائدة : 45
5 سورة المائدة : 43
6 سورة النساء : 65
7 سورة ق : 45
8 سورة النساء : 64
9 سورة الغاشية : 22
10 سورة يونس : 15
11 سورة آل عمران : 86

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[1] فكل عمله حقّ. فالذي يُقال فيه أنه لا يخطئ فذلك يكون بِعرض عمله على حقٍّ موجود يجب عليه اتِّباعه ولا يحيد عنه؛ أما النبي صلى الله وبارك عليه وآله فهو الذي يرسي هذا الحق الذي عليه تُقاس أعمال الآخرين. فلا يُقال في عصمة النبي صلى الله وبارك عليه وآله إنه لا يُخطئ؛ لأن أفعاله لا تُقاسُ على حقٍّ سَبَق، بل هي الحق الذي يُتَّبَع ويكون بها الحُكم على من يتَّبِع النبي بالصواب أو الخطأ في قول أو فعل. ويختلف معنى العصمة عند غيره، فإذا قيل إنه معصوم فذلك يعني أنه لايخطئ بالقياس إلى ما جاء به النبي صلى الله وبارك عليه وآله من تشريع. فكان الأمرُ الإلهي لِمن آمَن هو ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2]، وهو التَفويض الإلهي له في أمر الدين كله لِعصمته. فلا ينبغي لمؤمنٍ الاعتراضُ أو رفض ما يصدُر عنه أو محاولة النظر في صحته وعدم خطئه برأيٍ منه وبدعوى عِلمٍ يُحاكِم به أفعال النبي صلى الله وبارك عليه وآله وإخضاعها للخطأ والصواب. فالنبي صلى الله وبارك عليه وآله هو الذي كُلّ فعله تشريع، وهذا أمرٌ لا يكون لغيره مِن أمّتِه لاحتمال الخطأ عندهم واستحالته على النبي صلى الله وبارك عليه وآله؛ لأنه ليس له مِن الأمر شيء، إنما أمرهُ أمر الله، قال تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[3]، لذلك كانت طاعته هي طاعة الله. فلا تكون المُقارنة بين فعله وفعل غيره أو قوله وقول غيره بِقَصدِ معرفةِ الأفضل إلا نوعاً من رفضِ التسليمِ له ولِما جاء في حقِّه في كتاب الله، لِعَدَم وجود نسبة بين ذاتِه المعصومة وذاتِ غيره - القاصرةِ غيرِ المعصومةِ - للمُقارَنة. وهذه القداسة لذاته الشريفة اختصَّهُ الله بها ولا تكون من بعدِه لحاكمٍ أو أمير؛ لأنه هو الذي جاء ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[4] وليس غيره.

وحذّر الله من مُخالفة النبي صلى الله وبارك عليه وآله ومُنازعته لمِن أراد أن يتَّصف بالإيمان. فقال تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]، وقال أيضاً ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾[6]، ولم يأمره بالتسلّط عليهم. فلم تكن طاعة الناس والتسليم للنبي صلى الله وبارك عليه وآله ناتجةً عن تسلّطٍ دنيويٍ مِن عِندِه بالإمارة، أو عن حُكمٍ مُستمدٍ من موالين يسعون للسلطة والوزارة. أما ما صَدَر عنه صلى الله وبارك عليه وآله مِن حُكمٍ قضائي بين الناس، فكان – كما ذكرنا - نتيجةً لتحاكم الناس إليه بِرَغبَتِهم، فهم الذين يُحَكّمونه ويلجأون إليه لإيمانهم به عن رضا وطواعية وحب، لا خوفاً منه لأن الخوف في الإسلام لا ينبغي أن يكون إلا مِن الله. والخوفُ مِن الله هو الدّافع للوازِع الإنساني الذي يَمنَع مِن السلوك الخاطئ، وهو المُنتِج للقِيَم الإنسانية لِمَن تَدَنَّت أخلاقُهُم، فيَستقيم سُلوكهم دون تَدَخُّلٍ مِن شَخصٍ آخر يَفرضه عليهم. ولكن أصحاب الأخلاق العالية فخوفهم من الله هو خوفُ المُحِب الذي يخشى الإبعاد عن القُرب وعدم القَبول. ولكن الحُكّام يخيفون الناس بتسلطهم عليهم بالقَهرِ والعِقاب. ولم يأت حاكمٌ على الناسِ بِصِفَة دينية إلا بِفَرضِ سُلطته عليهم، لا بإجماعهم على محبته! لذلك لا يكون الحاكم ممثِّلاً للدين بل هو سلطان في دولة. ولم يكُن حكم النبي صلى الله وبارك عليه وآله – أي قضاؤه - بين الناس بتجسُّسٍ منه وترصُّدٍ لأخطائهم وإحضارهم بالقوة ليحكم فيهم كما هي حال الدولة. فكيف يدَّعي حاكمٌ أنه يحكم بالإسلام وهو يقهر الناس ويحجر على خصومِه ويُجبرهم على ما هو عليه مِن اعتقادٍ ورأي؟

كان نبيّ الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله يلتمس كل السُبل لإيجاد شُبهةٍ يدرأ بها الحدّ الشرعي، وكان يترك من يُقِرُّ بِذَنبه وشأنه، مالَم يتعلَّق الأمر بحقِّ الغير، ولا يُلاحقه لإيقاع العِقاب عليه إلا إذا حَضَرَ بنفسه لطلب العقاب ليُطَهِّر نفسه. وكان يقول **"ادرءوا الحدود**

1 سورة الإسراء : 105
2 سورة الحشر : 7
3 سورة الأنفال : 17
4 سورة الطلاق : 11
5 سورة النور : 63
6 سورة الحج : 67

بالشُبهة"[1] وكان يقول **"تعافوا الحدود بينكم فما بلغني من حدٍ فقد وجب"**[2]. فكان حُكمه صلى الله وبارك عليه وآله قضائياً ناتجاً من احتكام الناس إليه، لا من تسلُّطه عليهم ليحاكمهم. بل كان يحثُّهم على عدم اللجوء إليه للمحاكمة على عكس ما يفعل الحكام الذين يسعون بإنفسهم لإحضار الناس لمحاكمتهم ولو بالتجسس عليهم، وقال صلى الله وبارك عليه وآله **"من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"**[3] وقال صلى الله وبارك عليه وآله **"من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيى موؤودة في قبرها"**[4]. وهذا هو الدين الذي لا يوجد فيه قصد التسلُّط على الناس وتصيُّد أخطائهم، الأمر الذي لا تعرفه دولةٌ ولا حكومة حيث لا يُقِرّون مبدأ الستر في الدولة أصلاً؛ بل يشرعون التجسُّس والترصُّد وتتبُّع أخطاءِ الناس والقبض عليهم وإحضارهم للمحاكمة قسراً رغم أنفهم، والحجر على المُعارِضين. وليس هذا من الدين على الإطلاق.

والتسلط الدنيوي هو ما حصل بعده صلى الله وبارك عليه وآله، حيث احتاج الحاكم لمن حوله ليُجبِروا الناس ويُكرهوهم على مبايعتِه وطاعتِه بالسيف، ولو كانوا أعلم الناس بالدين منه. ولا أدري لماذا كانت محاولة إجبار عليّ عليه السلام للمُبايعة؟ هل كان هناك تخوُّف من أنه كان سيُضِل الناس ويُخرِّب الدين إن لم يُبايع؟ وهل كان متَّهماً بسلوك يُرى فيه عدم الحرص على دين الله؟ لا يوجد سببٌ غير فَرضِ السُّلطانِ عليه وعلى مَن معه!

وأحياناً يقوم الحاكم بنفسه بذُلِّ الناس وإجبارهم وقهرهم على مراده. وذكروا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتجسَّس على الناس بنفسه ويتسوَّر عليهم[5] لأنّ ذلك كان من لوازم السلطة والسيطرة والحُكم. وهناك ما يدعو للشكِّ في هذه الرواية، لأنه سلوكٌ يتعارض مع القرآن وحديث النبي صلى الله وبارك عليه وآله؛ فقد تكون القصّة المنسوبة لعمر رضي الله عنه قُصِد منها وجود مبرِّر للحُكّام للتجسُّس وإلصاق ذلك بالإسلام. ولا يقول مسلم بأن التجسُّس من الإسلام، وإلا كَفَر بما أُنزل على محمد صلى الله وبارك عليه وآله؛ فالله سبحانه يقول ﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾[6]. يُصِرُّ كثير مِن الناس على صحة هذه الرواية ويحسبونها من مناقبِ عمر رضي الله عنه ؛ إذ ينسبون إليه أنّ الذين كانوا يشربون الخمر - قالوا له إن الله يقول : ﴿**..لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**﴾[7] ، وأنت لَم تفعلِ ؛ والله سبحانه يقول : ﴿**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**﴾[8] ، وأنت لم تفعل ، بل تسوَّرت ؛ والله يقول ﴿**وَلا تَجَسَّسُوا**﴾[9] وأنت تجسست . فقالوا إن عمر رجع وتَرَكَهم حينما واجهوه بهذه الحُجَّة ، يُدَلِّلون بذلك على عدل عمر. ولا يدرون أنهم أساءوا إليه بِذلك ؛ إذ كيف يكون عادلاً ويتركهم وقد رأى بعينيه ما يوجِب حدّاً مِن حدود الله؟ فهل تَركُه لهم يُكَفِّر له أخطاءه الثلاثة ، أم أنه يُضافُ إليها ليُصبح الرابع ؟

كما ينسبون إليه - ويحسبونها مِن عَدلِه ومِن مناقبه - أنه أمر بالنفي على نَصرِ بن حجّاج - أحَد شباب المدينة المنوّرة - وذلك لأن الله سبحانه خَلَقه جميلاً - وهذه جريمته - وعلَّل أمر نفيه له بِخوفِه على نساء المدينة أن تفتتن به !! ولا يمكن أن يكون ذلك سبباً مُقنِعاً لنفيه لأن البلاد التي يُنفى لها لن تكون خالية من النساء !! ولا يُمكن أن يكون الجمال الذي خلقه الله به جريمةً يُنفى بسببها من أمِّه وأبيه وإخوته ومِن بلدِه!! وذكروا مِن مناقبه أنه رأى رجُلاً يمشي ببطء فضربه بالدرة وقال له : **"لا تمت علينا ديننا أماتك الله"**[10]، ولا أرى أن هذه تصب في عدله وميزان حسناته إطلاقاً ، فقد يكون الرجل مريضاً! وإن لم يكن مريضاً فإن مِن حق المرء كما قال تعالى :

---

1 فيض القدير
2 المستدرك على الصحيحين
3 صحيح البخاري
4 صحيح ابن حبان
5 كما قيل عنه مع الذين كانوا يشربون الخمر في دارهم – شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
6 سورة الحجرات : 12
7 سورة النور : 27
8 سورة البقرة : 189
9 سورة الحجرات : 12
10 الكامل في اللغة والأدب

﴿..وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1] ، أليس هناك حق لمن شاء أن يمشي بطيئاً؟ لقد أساءوا كثيراً إلى عمر رضي الله عنه بما نسبوه إليه بذكاء وقالوا إنها مِن مناقبه ، وقالوا في بعض الروايات إنه حينما أسلَم قال له النبي صلى الله وبارك عليه وآله : **"استره"** فقال عمر : **"والذي بعثك بالحق لأعلننه كما أعلنت الشرك"**[2] ليُدلِّلوا على شجاعته ولا يعلمون أنهم بذلك نسبوا إليه عصيان النبي في أول لحظة مِن إسلامه !! فالله يقول : ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[3]. ويقول النبي صلى الله وبارك عليه وآله **"إنك إن تتبَّعت عورات الناس أفسدتهم"**[4]، ويحثّ على العكس مِن ذلك إذ يقول **"من ستر أخاه المسلم ستره الله في الدنيا والآخرة"**[5]. فالإسلام ليس دولة؛ لذا فما تحتاجه الدولة لقيامها وبقائها يجب ألا يُنسَب إلى الإسلام بأي حال. فأساس الإسلام هو كما قال تعالى : ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾[6]، وهذا يعني عدم التِماسِ دعمٍ للدعوة مِن خارِجها، لأنها حق والحق يقوم بنفسِه لِكمالِه؛ والذي يحتاج إلى غيره ناقص. فلا يُطلَب للإسلام دعمٌ من خارج الدعوة نفسها؛ فلا يقولن أحد بعد هذا إن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله احتاج إلى بعض الرجال لدعم الدعوة؛ لأن ذلك مخالف للنص القرآني الذي تكفل الله فيه بأمر الدعوة كلها، ولكي لا يظن أحد ذلك الظن بالنبي صلى الله وبارك عليه وآله قال تعالى : ﴿**قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ**﴾[7]، وتولى سبحانه قتل المُشركين ولَم ينسبه لأحد غيره، قال تعالى : ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ**﴾[8]، فلا يبقى بعد ذلك ما يستدعي حاجة لأحد ليُعِز به الإسلام ﴿**..وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾[9]، ولا تحتاج الدعوة إلى سلطان ليقيمها، بل قد يحتاجها السلطان لنفسه يتقوّى بها : لأنها حق والحق منصور لا محالة.

فالذي يرى قيام الدولة ليقوم بها الإسلام فقد عكس الأمر وخالف النبي صلى الله وبارك عليه وآله في نشر الدين وتبليغه بمظهره الرحيم وقلبه الحليم ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾[10] لأنه رحمة الله للعالمين ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[11]. كما أن ذلك يبلِّغ حدّ الشكّ في قُدرة الله على القيام بِنَشر الدعوة ونُصرتَها، بمُجرد البلاغ من النبي صلى الله وبارك عليه وآله، لرؤيتهم عدم إمكانية قيام الدعوة بالبلاغ فقط، وحاجتها للدعم المادي!!

والحاكم في الدولة قد يُخالف شرائع الإسلام؛ إذ لا عصمة لحاكم، ولا يُمكن مطالبته بالعصمة مِن قِبَل الرعية، وعليه لا يكون الحاكم رأس الإسلام. فلا يُقال إن ما يصدر منه سُنّة تُتّبع! وبالتالي فالدولة ليست هي الإسلام، والإسلام لا تحصره دولةٌ ولا حدودٌ جُغرافيّة، ولا يُمَثِّله رأس الدولة، جَرّاءَ مُبايعةِ الناسِ له! ففي الإسلام كلّ فردٍ اختار الإسلام ديناً فهو مُقيَّدٌ محكومٌ بما أنزَل الله من الشرائع التي هي حكم الله، بل هو الذي قيَّد نَفسَه بها، لا يتسلَّط أحدٌ عليه بها. وهي الحاكمة على الجميع، والرقيب على الالتزام بها هو الله وحده، وحقُّ العقاب عليها راجِعٌ إليه سبحانه في الآخرة – إن شاءَ عَفا وإن شاءَ عاقَبَ - ولا قُدسيّة لأحدٍ فوقها – ملكاً كان أو أميراً - ولا يَحِقُّ لأحدٍ سَنُّ قوانين أو تشريعاتٍ تُخالفها تنتقص من حرّيات الناس وحقوقهم، ولا فَرق بين رئيس ومَرؤوس، بل لا يوجد رئيس ومرؤوس في الدين (أي الإسلام)، إنما هناك مَرجعية يَعلمُه الناس بالضرورة لِتَفوُّقه على الآخرين بالعلم وحُسن المعاملة وحيازة كل القِيَم الاجتماعية وسُموّ الأخلاق. فيولونه محبّتهم وثقتهم وطاعتهم، فيُحكِّمونه في أمورهم ليقضي بينهم بما أنزل الله مِن شَرعِه، أي بحكم الله، فيصبح هو المرجعية للمجتمع، ولكن بصورةٍ لا إكراه فيها ولا سيطرة. ولا

---

1 سورة الكهف : 29

2 مصنف ابن أبي شيبة

3 سورة النور : 63

4 صحيح ابن حبان

5 صحيح ابن حبان

6 سورة النور : 54

7 سورة الحجرات : 17

8 سورة الانفال : 17

9 سورة آل عمران : 126

10 سورة آل عمران : 159

11 سورة الأنبياء : 107

يسعى هو للتميُّز عليهم على الرغم من تمييز الله له، ولا يُكرههم على أمْرٍ ولا يُرعِبهم – قال صلى الله وبارك عليه وآله **"لا يحِلّ لمسلم أن يروع مسلماً"**[1] وقال **"من نظر إلى أخيه نظرةً تُخيفه أخافه الله يوم القيامة"**[2]. فيكون هذا ديدنه وله في رسول الله أسوة حسنة.

1 سنن أبي داؤود
2 شعب الإيمان

مرجعية دينية لا حكم سياسي !

ليست الإمارة والحكم السياسي هو ما شرعه رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله من الدين ولا أشار إليه في سيرته، ولا المرسلون مَن قبله؛ ولكن انحرف بعضهم بالدين إلى غير مقاصده، ووجَّهَه إلى إنشاء الدولة الدنيوية والحكم السياسي، على الرغم من ما أشار به النبي صلى الله وبارك عليه وآله في حديثه **"تَرَكتُ فيكم ما إن أخَذتُم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي"**[1] فما كان الأمر يحتاج إلى تغييرٍ في أمر سيرِ الحياة. فما أنْزَلَ اللهُ من التشريعاتِ - التي هي حكم الله - موجودٌ ومحفوظ **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**[2]، والالتِزامُ به – ممن أراد – باقٍ دون إكراه. فالناس قد دخلوا في الإسلام برغبتهم وعن طواعية، فَوَلاؤهم لله ولِما أنْزَلَ مِن التشريعات، **﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾**[3] ولا يُكرَه؛ قال تعالى : **﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾** [4]. فالذين آمنوا بالله ورسوله وأحبُّوا الله ورسوله لا يتغيَّر مسارُهم في الحياة من الالتزام بما أنزَل الله لأنَّ تلك إرادتهم ورَغبَتهم، وإذا رابَهم أمرٌ بحثوا عن المرجعية لِفَكِّ الارتياب؛ فيجدونه كما قال النبي صلى الله وبارك عليه وآله - عند العِترة الطاهرة حيث كتاب الله ومَعرِفته **"كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض"**[5].

فلا يكون المرجعية حاكماً ولا أميراً ولا سُلطاناً، كما يظُن بعض المسلمين الذين يعتقدون أنّ ما جرى مِن بيعةٍ بعد النبي من أجْل الحُكم كان يجِب أن تكون لسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام لِقُربِه من النبي، ولِعلمه، ولِما أشار به عليه النبي صلى الله وبارك عليه وآله في قوله **"من كنت مولاه فعلي مولاه"**[6]. فليست الإمارة والحُكم هو ما أشار به النبي لعلي عليه السلام؛ إذ ما كان ينبغي أن تكون هناك منهم بيعةٌ لِحُكمٍ وسلطةٍ وسيطرة أصلاً لأجل الدين - بإكراهٍ أو بغيره - وما كان علي عليه السلام يتطلَّع إليها لِعَدَم ورودها في منهج الإسلام، فذلك أمر قد نفاهُ الله عن النبي صلى الله وبارك عليه وآله **﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾**[7]، فتنتَفي بالضرورة عمن جَعَل النبي موالاته موالاته، ومَن كان منه بمنزلة هارون من موسى. فالحديث لا يعني أن يقوم وصيُّه بإنشاء دولةٍ تُكرِه الناس على الدين. وقد وَرَدَ عن علي عليه السلام أنه قال **"اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسةً في سلطان ولا التِماس شيءٍ من فضول الحُطام، ولكن لِنردَّ المَعالِم مِن دينِك"**[8]، ولم يُسَمِّ عليه السلام مَن يخلُفُه، تأكيداً لمعنى أن الولاية ليس المقصود بها السلطة السياسية والإمارة. بل هي المرجعية التي يحتاجها أولئك الذين ارتضوا الإسلام منهجاً للحياة وامتلأت قلوبهم بمحبة رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله. فأخطأ من ظنَّ أنّ ما كان من بيعةٍ، أُكرِه عليها الناس، كان يجب أن تكون لعلي عليه السلام؛ لأنّه لا مكان في الإسلام لبيعةٍ يُكرَه الناسُ عليها للتسلط بها على رقابهم.

ولكن التفكير في السُلطة والإمارة كان مُسيطراً على القوم **"نحن الأُمراء وأنتم الوزراء"**[9] فالحُكم عندهم أولاً كان هو الأهم، فاستَبَقوا إليه رغبةً في السلطة والتحكُّم في عباد الله!! ولا يدَّعي أحد أن ذلك قُصِد به حفظ الدين، فالله سبحانه قد تكفَّل بحفظه ودعمه ورعايته **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**[10] ولم يجعل لذلك وكيلاً عنه من خلقه **﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾**[11]. فما

---

1 سنن الترمذي
2 سورة الحجر : 9
3 سورة آل عمران : 97
4 سورة آل عمران : 176
5 مسند أحمد
6 سنن الترمذي
7 سورة الغاشية : 22
8 نهج البلاغة
9 صحيح البخاري
10 سورة الحجر : 9
11 سورة الأنعام : 107

كان من القوم إذن هو تسابقٌ للسلطة وتقاسمها .. "**منّا أمير ومنكم أمير**[1]"؛ فكانت الفلتة كما سمّاها عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2]، بينما لم يَزَل أعظَمُ وأحبُّ خلق الله مُسَجّىً لم يُوارى بعد! وليس على وجه الأرض أفضل منه، مهما كان شأنه و دوره! ولكنهم انشغلوا عنه صلى الله وبارك عليه وآله. ولم يشهد أبوبكر وعمر دفن النبي صلى الله وبارك عليه وآله[3] ولَم يُصَلِّيا عليه، وكذلك عائشة رضي الله عنها إذ وَرَد عنها "**مَا عَلِمْنَا بِدَفْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى سَمِعْنَا صَوْتَ الْمَسَاحِي مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ**"[4]. فليس هناك شيءٌ أُغتُصِبَ من علي عليه السلام، ومُحال أن يُغتصَب منه حقٌ اختصَّه اللهُ به ورسولُه دون غيره. فكلامُ النبي حقٌّ لأنه صلى الله وبارك عليه وآله حقّ، لِقول الله تعالى : ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ**﴾[5] ولا يخرج من الحقِّ إلا الحقّ ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾[6]. فمَن كان النبي مولاه فعليٌ مولاه إلى قيام الساعة، فولاية الرسول صلى الله وبارك عليه وآله لا تنتهي برحيله، وكذلك ولاية علي عليه السلام لا تنتهي برحيله، فلا يمكن حصرها على حياته أو على سلطة دنيوية. ولا تعني ولاية علي عليه السلام السُلطة السياسية والحُكم والإمارة، فذلك شأنٌ دنيوي ينتهي بموت صاحبه، وليس من الدين في شيء، ولا يوجد حاكم ولا مُتَسلِّط في الإسلام على الناس. فلا ينبغي أن يُقال لمن يقهر الناس ويتسلط عليهم بأنه صار أميراً للمؤمنين لمجرد أنه أصبح حاكماً؛ لأنّ ذلك لا يزيده إيماناً فوق الذين آمنوا وإن ظَنَّ أنه أكمل الناس إيماناً. فهو فقط أمير بلد أو دولة محددة، وليس على المؤمنين في الوجود، والذي يظن أنه أكمل الناس ايماناً فقد أمن مكر الله ﴿**فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[7].

والإيمان محله القلب ولا يَعلَمه إلا الله سبحانه. فما الإسلام إلا دين - أي شرائع أنزلها الله ليتحاكم إليها من يرتضيها - لا فَرقَ فيه بين غني وفقير وأسوَد وأبيض، وقمّة الدين صالح الأخلاق التي يزيّنها الحبيب المصطفى صلى الله وبارك عليه وآله. والعقل يُحَتِّم أن يكون دين الله مُرتضىً بل محبوباً لا مَكروهاً. فالأمر الذي يُكرَه عليه الناس مكروه عندهم. ولا يحِقُّ لأحدٍ أن يضع دين الله في هذه الصفة. والرسول صلى الله وبارك عليه وآله يقول "**حَبِّبوا الناس إلى الله يُحببكم الله**"[8]. فلا تَجعلوا الدين مكروهاً يُجبَر الناسُ عليه .. "**يَسِّروا ولا تُعَسِّروا وبشِّروا ولا تُنَفِّروا**"[9]. فأخْذُ بيعةٍ من الناس بإكراهٍ بقَصدِ المُحافظةِ على الدين لا مُبَرِّر له ولا يوجد له سَنَدٌ من كتاب الله ولا مِن صاحب الرسالة صلى الله وبارك عليه وآله. والإكراهُ أمرٌ مُنَفِّرٌ في المُكرِه والمُكرَه عليه، فطَلَبُ الإمارةِ لإكراه الناس على الدين مخالَفَةٌ للدين، ومُنَفِّرٌ للذين يُفرَض عليهم، لوجود السيطرة التي نفاها الله عمن يدعو إلى الإسلام، ولا يليق ذلك بدين الله ونبي الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله. فأينما وُجِدَ الإكراه فقد فُقِدَ الدين كما قال تعالى : ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[10]. فلا يدَّعي أَحَدٌ أنه على سُنَّةِ النبي صلى الله وبارك عليه وآله وهو يُكره الناس على الدين بالشُرطة والهسس ويجبرهم على طاعته بالسيطرة والحكم الذي يفرضه عليهم مُنتَزِعاً بذلك حريتهم بمبايَعةٍ يُجبِرهم عليها.

---

1 صحيح البخاري
2 صحيح البخاري
3 مصنف ابن أبي شيبة
4 مسند أحمد
5 سورة آل عمران : 86
6 سورة النجم : 3
7 سورة الأعراف : 99
8 الأولياء
9 صحيح البخاري
10 سورة البقرة : 256

إطاعة أولي الأمر !

لم يُنَصِّب الله سبحانه رُسُلَه حُكّاماً أو وُكَلاء عنه ليعاقبوا الناس الذين لا يلتزمون بالتعامل بالشرائع المُنزَلة، أو الذين يرفضونها **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾**[1]؛ لأنهم ليسوا أصحاب سلطان وما عليهم إلا البلاغ؛ والتزام الناس بالشرائع وتنفيذها إنما يُحدِّد ويبيِّن صِفَتهم التي وصفهم بها الله، لا أكثر؛ فإما مؤمنون ملتزمون بالشرائع وإما كفارٌ لا يؤمنون بها أصلاً، وهؤلاء يُدعَون إليها بالحكمة والموعظة الحسنة، لا إكراه عليهم ولا سيطرة. والمؤمنون المُلتَزِمون يجب ألا يروا في أنفُسِهم سيادةً على الآخرين بذلك ويظنوا أن ذلك الالتزام يعطيهم حقَّ التسلُّط لأنّهم الفرقة الناجية، فالعِبرة بالخواتيم، كما أن ذلك يجعلهم من الهالكين الآمنين مِن مكر الله **﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾**[2]. فإنّ الناقِد بَصير والميزان دقيق، فالويل لمن لا يتذكّر ويتَدَبَّر **﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾**[3]. فالإيمان يُكسِب المرء الخوف من الله أن يُبعده من رحمته، والرجاء فيه ليدخله فيها. فالخوف والرجاء هُما اللذان يسوقان العبد إلى الله، فلا يغفَل عن مُحاسبة نفسه، فكيف يتصدى لمحاسبة الآخرين وتصنيفهم وعقابهم وهو يجهل مصيره في الآخرة، ولو كان مجاهداً في سبيل الله؟ فقد قال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله **"ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته"**[4]؟!

وأمْر الناس الذين يرفضون التعامل بما أنزَل الله من الشرائع - التي هي حكم الله - موكول إلى الله الحَكَم العَدل للحساب في الآخرة، كُفاراً كانوا أو مُشركين، فلا يتسلَّط أحد على حرياتهم بدعوى العلم بالدين، فيَلبس صفةَ إلهية قهرية، ويُعَجِّل لهم الحساب والعقاب في هذه الدنيا بالوكالة عن الله سبحانه فيسومهم سوء العذاب! وهو أمر لم يُعطِه الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم قال تعالى : **﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾**[5]. والتعامل معهم يجب أن يكون تأسِّياً برسول الله صلى الله وبارك عليه وآله. ولننظر كيف كان تعامله مع الكفار والمشركين من العرب وغيرهم، مما دعاهم لقبول الدعوة. فإنّ في التعامل الرحيم الودود، جذبٌ للقلوب وميلٌ لصاحِبِ ذلك التعامل. فهكذا يجب التعامل مع الإنسان من حيثُ إنسانيتُه. فالصِّفات، كالكُفرِ والشِّركِ أمورٌ عارضة قد تتغيَّر إذا وُجِدَ الطبيب المُداوِ صاحب الأخلاق العالية. فالإنسانية هي الأصل الذي كرَّمَه الله تعالى، قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾**[6]، فالآخر **"أخوك في الدين أو صنوك في الخلق"** كما قال الإمام علي عليه السلام؛ فلا مجال للكراهية والبغضاء.

أما قوله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾**[7]، فالأمر الإلهي موجّه للذين آمنوا بطاعة الله والرسول وأولي الأمر، ولا يوجد أمر إلهي للرسول وأولي الأمر لمعاقبة من لا يمتثل لأمرهم. ولكن الناس أخطأوا فَهمَ المقصود في الأمر كما فَعلوا في تفسير الحديث **"مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ"**[8]، فمَنعوا القيام لأهل الفضل، بينما الحديث لا يُخاطِب الذين يقومون لِصاحِب الفَضل، بل مطلوبٌ منه هو ألا يُحِب ذلك منهم. فطاعة الله سبحانه هي اتِّباع ما أنزلَه على رُسُلِه صلوات الله عليهم. من يَرفُض ذلك مِن

---

1 سورة يونس : 108
2 سورة الأعراف : 99
3 سورة القارعة : 8-9
4 مسند أحمد
5 سورة الأنعام : 107
6 سورة الإسراء : 70
7 سورة النساء : 59
8 سنن الترمذي

الناس فأمرُه إلى الله في الآخرة لِيعاقبه أو ليعفو عنه - إذ لا يجب على الله فِعلُ شيءٍ أو تَركُه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1] - وليس لأحد حق التدخل في حريته.

وطاعة الرسول صلى الله وبارك عليه وآله هي الأدب معه والالتزام بما يأمُر به من تِبيانٍ لِما أنزَله الله سبحانه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2]. ومَن يَرفُض الالتزام بما جاء به الرسول صلى الله وبارك عليه وآله، فأمرُه كذلك إلى الله في الآخرة، وليس على الرسول محاسبته ومعاقبته ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾[3] ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[4] ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[5]. ولم يُعطِ الله سبحانه رسوله صلى الله وبارك عليه وآله الحق في معاقبة مَن يعصيه ويرفض طاعته ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[6]، فحدُّ العقاب في عصيان الرسول صلى الله وبارك عليه وآله هو أن يتبرأ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله من عمل الذي يعصيه ولا يوجب عليه إنزال عقوبة دنيوية كما بيَّنت الآية الشريفة. ولكن الله شَرَطَ الهدايةَ باتِّباع رسوله وطاعته ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[7] وجَعَلَ جزاءَ تلك الطاعة الثوابَ الجزيل والمعيَّة مع الأنبياء ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً﴾[8]. وما كان النبي صلى الله وبارك عليه وآله مُتَسلِّطاً يُعاقِب مَن يَعصي أوامره، ولا توجد حالة في سيرته صلى الله وبارك عليه وآله عاقَب فيها أحداً رَفَضَ الانصياع لأمرِه.

فلا يحقُّ لحاكمٍ أو أميرٍ أن يُلبِسَ حُكمَه أو إمارتَه ثوبَ الدين ليحاسب الناس ويعاقبهم بِاسمِ الدين ويقال عنه إنّه من أولي الأمر. فإن مَن يُلبِسَ حُكمَه أو إمارتَه ثوبَ الدين عليه أن يَعلم أنّ ذلك يوجب عليه الاتصاف بما ينبغي على الداعية، فيُشتَرَط فيه صالحُ الأخلاق، فيكظم غيظه، ويعفو عمن ظَلَمَه، ويَصِلُ مَن قَطَعَه، ويُعطي مَن حَرَمَه، ويُحسِن إلى مَن أساء إليه. وعليه ألا يتعدّى حدودَ ما أنزَلَ اللهُ على رسولِه من الشرائع، ولا تتعدّى دعوتُه لإقامةِ الدينِ التبليغَ فقط للمشركين والكفار - وليس للمسلمين - دون إكراهٍ لأحدٍ منهم على ذلك. وليس له الحقُّ في معاقبةِ أحدٍ إذا عصاه، ولا يزيدُ على التذكيرِ بالتبشيرِ والإنذارِ للذين آمنوا، ولا يتتبع الناسَ في سلوكِهم لغَرَضِ بقاءِ سلطتِه، ولا يجعل لنفسِه قدسيةً تستوجِبُ طاعةَ الناسِ له بحُكمِ إمارتِه. ولا يظُن أن حُكمَه أو إمارته تزيده علماً وتجعله المسئول عن المُحافظة على الدين في المجتمع، او أنّه صار أعلم الناس بالدين وأكثرهم إيماناً وتديناً فيُصدِر مِن التشريعات ما يُكرِه به الناس ويُجبِرهم على مُرادِه، ويُشعِرهم بأفضليته الدينية عليهم، فهو لا يعلم عاقبة أمره، ولا يُثابُ على إجبار الناس على الدين؛ لأنَّ ذلك ليس مِن الدين في شيء. فليس في رفضِ الطاعةِ فيما يجبُ لله سبحانه ولرسوله الأعظَم معاقبةٌ دنيوية من الرسول صلى الله وبارك عليه وآله، فكيف يكون لأولي الأمر حقٌّ في التسلُّط بِوَجهٍ ديني، وإجبار الناس على مُرادهم ومُعاقبتهم في مخالفتهم؟

إن الأمر الإلهي لا يعطي أولي الأمر حق التسلط على الخلق بِوَجه ديني، فلَم يوجِّه الله سبحانه أمراً إليهم ليعاقبوا من يخالفهم، بل أمرُه تعالى موجَّه إلى عباده الذين آمنوا ليطيعوهم، فإن لم يفعلوا فحسابهم على الله في الآخرة - إن شاء عاقب، وإن شاء عفا - وليس لأولي الأمر حقٌ أكثر مما للرسول صلى الله وبارك عليه وآله؛ الذي لم يُعاقِب من عصاه، ولم يأمره الله بمعاقبة من يعصيه. فالله سبحانه وتعالى بيَّن لرسوله صلى الله وبارك عليه وآله حدود الرسالة .. قال

---

1 سورة الأنبياء : 23
2 سورة النحل : 44
3سورة الشورى : 48
4 سورة النحل : 82
5 سورة المائدة : 92
6 سورة الشعراء : 216
7 سورة النور : 54
8 سورة النساء : 69

تعالى : ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾[1]، ليكون المُحاسِب والمُعاقِب للمخالفين والرافضين للدين هو الله سبحانه وتعالى في الآخرة وإن شاءَ عفا عنهم ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ**﴾[2].

فطاعة أولي الأمر المنصوص عليها لا تعطيهم، مِن وَجهٍ ديني، حق التسلط على الناس وعقابهم، الأمر الذي لم يعطه الله لرسوله الكريم. فعقاب الناس على العصيان ليس إلا لرَبِّ الناس في أمور الدين كلها. فإن كان هناك عقاب على مخالفة أولي الأمر من ناحية دينية فذلك عند الله في الآخرة، وكذلك من عصى الله ورسوله فعقابه عند الله في الآخرة، فلا سلطة دينية لأحد ليعاقب بها الناس في عصيانهم له.

فلا يوجد أمرٌ للنبي بإنشاءِ دولةٍ أو حكومةٍ للقيام بالوكالة عن الله في محاسبة الناس وعقابهم بسبب الدين، لأنّ الدولة أو الحكومة لا تكُفُّ عن ملاحقةِ الناس وتتبُّع أخطائهم والتجسُّس عليهم وسَلْبِ حُرِّيّاتهم التي أعطاها لهم الحق سبحانه ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[3] وقال سبحانه ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[4] ولا يوجد أمرٌ مِن النبي صلى الله وبارك عليه وآله لِخَلَفٍ بإنشاءِ دولةٍ لرعاية الدين مِن بعده. بل بيَّن عدم علاقة الدولة بالدين في قوله صلى الله وبارك عليه وآله "**إن الكتاب والسلطان سيفترقان**"[5]. فالسلطان هو الأمر الذي يجمع اللهُ به الخلقَ لطاعة أحدٍ من عباده. وهو يكون لِرُسُل الله بتأييدٍ إلهي، ويُنزِّله الله لهم مع الكتاب، دون سعيٍ مِنهم، كما كان للنبي صلى الله وبارك عليه وآله ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ**﴾[6]، وليس في هذا السلطان سيطرةٌ على العباد، لانقيادِ الناسِ وطاعتِهم بِرغبَتِهم. ولكن قد يُفرَض السلطانُ -الإمارة- عن طريقِ تَسَلُّطٍ وإجبارٍ، بِسَعيٍ من العباد، لعدم وجود التأييد الإلهي الذي يكون لرُسُل الله، وهذا مُفارِقٌ للكتاب ﴿**...وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[7]، وواضحٌ مِن هذه الآية أن الناسَ قد يتَّخذوا سُلطاناً مِن عِندِهم مُغايِراً لِما أنزَلَ اللهُ مِن السُّلطان، فيُضطروا لِدَعمِه بالشرطة والعَسَس، ويُصدرون تشريعاتٍ ويُجبرون الناس عليها، وتلك عبادة الناس لهم "**أحَلُّوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**"[8]، فاختَلَقوا سُلطاناً لَم يأذَن به الله، قال تعالى : ﴿**...وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً**﴾[9]. وهذا ما حدث بعد النبي صلى الله وبارك عليه وآله، وهو إنشاء الدولة والإمارة باسم الدين. ولو كان إنشاء دولةٍ ضرورة في حفظ الدين لَما تَرَكَ الرسولُ صلى الله وبارك عليه وآله الناسَ دون أن يُعَيِّن لهم رئيساً لذلك، وليس هناك من هو أحرص منه على المؤمنين ﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُم**﴾[10]، وحِفظ الدين قد تكفَّل به الله سبحانه وتعالى ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[11].

1 سورة الرعد : 40
2 سورة الرعد : 6
3 سورة الكهف : 29
4 سورة البقرة : 256
5 مجمع الزوائد
6 سورة النساء : 64
7 سورة الأعراف : 33
8 تفسير ابن كثير
9 سورة العنكبوت : 17
10 سورة التوبة : 128
11 سورة الحجر : 9

دولة من أجل الدين أم دين من أجل الدولة ؟

الدولة لابد لها من تنظيم أو حزب سياسي، وليس هذا من الدين في شيء؛ لأن عدم وجود التنظيم السياسي لا يعني انعدام النظام في الحياة. فالتنظيم أو الحزب في الدولة إذا كانت له الغلبة أو القوة فهو الحاكم على المجتمع في نظرهم، فمَن لَم يكن عضواً فيه فهو - وإن كان مُسلِماً - مواطن من الدرجة الثانية ويُنظَر إليه بعين الريبة مِن قِبَل الدولة أو الحاكم حتى ولو كان من أبناء الرسول صلى الله وبارك عليه وآله!

لقد أوضح النبي صلى الله وبارك عليه وآله أنّ التنظيم الهرمي ليس ديناً حين عيَّن في أواخر أيامه الشريفة أُسامة ابن مولاه زيد قائداً وأميراً للجيش، وهو ابن العشرين سنة وتحت إمرته أبوبكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد – حتى لا يقول قائل **"إنّ فلاناً في الصحابة أرفعُ مكانةً من فلان"** على أساسٍ تنظيمي ولا يقول قائل **"فلان أتقى من فلان"** فهو أولى بالإمارة، فالتقوى محلُّها القلب ولا يطَّلِعُ عليها غير الله ﴿**..هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾[1]، فلا يحِقُّ لأحدٍ أن يَصِفَ بِها جازِماً أحَداً مِن الناس. ولا ينبغي أن تكون سبباً للإمارة والتسلُّطِ على خلق الله. كما أنّه لا يكون التسلط أو الإمارة على العباد دلالة على تقوى المتسلط أو الحاكم أو غزارة علمه إن لم يكن العكس، لأنه يتتبّع عثرات المُكرَهين، فقد صعد رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله المنبر **"فنادى بصوت رفيع وقال يا معشر من اسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تطلبوا عثراتهم فإنه من يطلب عورة المسلم يطلب الله عورته ومن يطلب الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته"**[2].

ومَن يرى - مِن الذين يظنون أنّ الإسلام دولة - أنّ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله لم يُكمِل إنشاء الدولة الإسلامية، حيث أنه لم يعمل تنظيماً سياسياً أو مؤسسات، فقد اتَّهم – بِفهمِهِ الخاطئ للرسالة - النبي صلى الله وبارك عليه وآله بالتقصير في أداء رسالته؛ بل وقد اتَّهمَ الحقَّ سبحانه في إكمال الدين فإنّ الله سبحانه قال ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[3] ولا إضافةَ في أمرٍ بعد إكمالِه. وربما يُظَنُّ كذلك أنّ من جاء بعده وأقام مؤسسات الدولة له الفَضلُ في توسيع الدعوة والرسالة! وهذا هو الوقوع في الخطأ القاتل لأنّ الرسالة لا علاقة لها بإنشاء الدولة، إنما الدولة شأن إداريٌ سلطوي دنيوي ينشئه الناس لتنظيم حياتهم في أمورهم الاجتماعية والمعيشية كالتعليم والصحة والمواصلات والاتصالات ..إلخ. فالدولة تحصرها حدودٌ جغرافية وهناك دول أخرى تُناصبها العداء؛ والدِّينُ لا حدود له، ولا يُعادي صاحبه الذي يدعو به أحداً، لأنه صالح الأخلاق التي لا تعرف المُعاداة .. قال تعالى : ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[4] - قال تعالى نافياً للحدود الجغرافية ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ**﴾[5] وما ذلك إلا بالبلاغ فقط للناس كافَّة، الأحمر والأسود دون حَصرٍ أو تمييز أو حدود، لا بإنشاءِ دولةٍ محدودةٍ لإجبارِهم على الشرعِ وإكراههم على أداءِ ما طُلِبَ منهم باسم الدين! فإنَّ هذا ما يرفضه الدين ويُنكره ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾[6] فأصل الدعوة هو التبليغ لإتمام صالح الأخلاق، فمن شاء أن يتحاكم إلى ما شرع الله فقد أسلم وجهه لله ويرجو من الله الفوز في الآخرة، ومن لم يُرِد فهو وشأنه ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[7]. فأنزل الله الشرائع للتعبُّد بها، قال تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[8] وذلك باتِّباع التشريعات التي أنزلها على رسله، ورغم ذلك لم

---

1 سورة النجم : 32
2 صحيح ابن حبان
3 سورة المائدة : 3
4 سورة فصلت : 34
5 سورة سبأ : 28
6 سورة يونس : 99
7 سورة الكهف : 29
8 سورة الذاريات : 56

يطالبهم بالعصمة - لأنّهم ليسوا ملائكة - بل طلب منهم الاستغفار عند حدوث الزلل: الأمر الذي ينعدم عند الحكام وأصحاب السلطان. والعبادة هي اتِّباع الشرائع وهي الدين؛ قال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله **"أحَلُّوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم"[1].**
وليس على الرُسلِ إلا تبليغ الشرائع **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾**[2].

وجَعَل الله الشرائع للناس لأنها أقرَب الطُرُق الموصلة لمعرفته تعالى، وشَرَعها لهم رأفةً ورحمةً بهم حتى لا يتيهوا في سلوك الطريق الموصلة إليه **﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**[3]. والالتزام بها هو العبادة، فهي الدين الذي جاء به كلّ رسل الله صلوات الله عليهم، وهي ليست محصورة في الصلاة والصيام والعبادات الشخصية فقط لأنها منهج الحياة الكامل للفرد الصالح. وقد فَسَّر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى **﴿لِيَعْبُدُونِ﴾**[4] أي "ليعرِفون"، وغاية المعارف هي معرفة الله سبحانه. فانتفى الإكراه في الدين - الذي هو الشرائع - لتكون المَعرِفَةُ مطلوبةً بمحبةٍ واجتهاد، ولا يُجبَر عليها أحدٌ، بل يتسابق إليها الناس **﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾**[5]، لأنها أنفَس الغايات **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾**[6] وتبع الشرائع التي أنزلَها الله على رُسُلِه في كتُبِه المُقدَّسة **﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾**[7]. فالذي يضع قَدَمَه في مِعراجِ المَحَبَّةِ فلا سَقف ولا مُنتهى له **﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾**[8] **﴿...وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾**[9].

ومن يظن أن الدولة هي الأساس لقيام الدين فلم يفهم الدين أصلاً، بل جعل السياسة والسلطان حاكماً لقيام الدين، وبهذا المفهوم يتبنّى إكراه الناس على الدين وهو الفهم المغلوط بل المعكوس تماماً. وأهل هذا الفهم هم الذين يظنون أن النبي صلى الله وبارك عليه وآله إنما أنشأ الجماعة المُسلمة أولاً بالحِكمَة والموعظة الحسنة لتَقوى شوكتُهم، ثم نَشَر الدين بعد ذلك بالسلطان والقهر!! وبهذا المفهوم يكون عندهم الرسول صلى الله وبارك عليه وآله قد وضع لهم الأساس للدين - الذي في مفهومهم الفاسد هو الدولة - ليقوم الذين مِن بعده بتطويره بِعَمَلِ تشريعاتٍ وفِقه يُفرَض على الناس، ويقيموا المؤسسات والحِزب أو التنظيم ويؤَدّوا الرسالة ويُكمِلوا - في نظرهم - ما لم يفعله النبي صلى الله وبارك عليه وآله، للحفاظ على الدين ونشره، فيكون مَن يؤسِّس الدولة هو المرجعية في الدين عندهم، ولو كان أقل عِلماً من الآخرين، وعلى أكثر الناس علماً في رعيّته أن يدين له بالولاء والطاعة وإلا كان من الهالكين أو المُنَكَّل بهم! وعلى الناس اتباع أوامره كأنها دين وسُنَن يجب اتّباعها كسُنَن النبي صلى الله وبارك عليه وآله، وربما يقولون إنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله أَمَر باتِّباعها!! وهي نظرية ابتدعوها من عند أنفسهم لا يسندهم فيها إلا حب التسلط على الناس بإنشاء الدولة وفرض ما يريدونه عليهم وكأنه أمرٌ ديني! بينما الدولة ليست هي الدين الذي أَرسَل الله به رسله. ويظن بعضهم أنّ النبي إنما جاء بالرسالة ليُسلِّمها لغيره ليقوم الناس بعد ذلك بتطويرها والحُكم بها على الناس؛ ومَثَلُه عندهم كمن أُعطي شيئاً ليوصله لغيره، فلا ميزة له على غيره من الناس عندهم.

والذي يظن أن الدولة هي الدين فقد أخطأ فَهْمَ الدينِ من بدايتِه، إما جهلاً أو عمداً، فالدولة لا تقوم إلا على السلطان والمال، والإكراه هو العروة في ذلك. فلا دولة بلا إكراهٍ للناس على شرعها، والدين لا يقوم بالمال ولا السلطان كما أنه لا إكراه في الدين للناس كما أمر الله سبحانه في مُحكَم تنزيله، فالتباين بينهما واضح. ورغم هذا الوضوح بأنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله

---

1 تفسير ابن كثير
2 سورة النحل : 35
3 سورة البقرة : 143
4 سورة الذاريات : 56
5 سورة المطففين : 26
6 سورة الأعلى : 14
7 سورة الأعلى : 18 - 19
8 سورة النجم : 42
9 سورة يوسف : 76

لم يُرسَل بإنشاءِ دولةٍ أو لعمل حكومة إنما لمُجرّد تبليغ الشريعة، ورغم أنه لا يوجَد مُسلمٌ واحد يقول إنّ النبي صلى الله وبارك عليه وآله كان حاكماً أو أميراً أو سُلطاناً، مازال بعضٌ ممن طغى عليهم حُب السلطة، يرى أنَّ إنشاءَ الدولةِ أمرٌ مُستَبطَنٌ في الرسالة، لرعاية الشرائع بعد تبليغها ولمتابعة تنفيذها!! ويظن أنّ هذا الاعتقاد لا ينفَكّ عن الدين إن لم يكن هو الدين نفسه!! لا يسنده في ذلك إلا هوى مُتَّبع وجهل مُشاع.

ولو كان التسلط والقهر والسيطرة من لوازم الدعوة، لأنشأ الرسل صلوات الله عليهم دولاً وحكومات من أجل ذلك، ولما بدأ خاتم الرسل صلى الله وبارك عليه وآله الدعوة سراً. فلا توجد قوة على وجه الأرض أكبر من تلك التي مع رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله، فهو رسول رب العالمين للناس، والذي أرسله لا شك حافظُهُ وناصِرُهُ وحافِظٌ دينه، فكان يمكن أن يقول للناس إني رسول الله إليكم ومن لم يؤمن بي وينفذ ما آمره به نكَّلتُ به وفعَلْتُ به الأفاعيل. وقد أظهر الله سبحانه الاستعداد بتلك القوة للمواجهة حين استدعى الأمر، فهدَّدَ بها مَن أرادتا التظاهُر على رسولِه رغم خصوصية العلاقة، وهي قوة لا كشُرطة مُكافحة الشّغب أو الاحتياطي المركزي أوالأسطول السادس، إنها قوة لا قِبَل لِلعالَم كله بها، فقال عز من قائل وهو ذو القوة المتين ﴿**وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[1]. فإن القوة الإلهيَّة فاعِلة في الدنيا والآخرة، فَضَرَب الله مثلاً لذلك لِمَن أراد التظاهر على رسوله، بِذِكر ما فَعَل لمن آذى رُسُلَه السابقين، فقال تعالى : ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[2] رغم خصوصية الزوجية.

1سورة التحريم : 4
2 سورة التحريم : 10

سُنَّة الخلفاء الراشدين !

نجد أن تفكير القوم في إنشاء الدولة وقيام السلطان قد بدأ التحزُّب إليه قبل رحيل النبي صلى الله وبارك عليه وآله، وبِمَعزلٍ عنه؛ فقد جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ أنه قَالَ: **"كُنَّا نَقُولُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ؟ فَنَقُولُ: أَبُو بَكْرٍ , ثُمَّ نَقُولُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ مَنْ يَكُونُ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ؟ فَنَقُولُ: عُمَرُ بن الْخَطَّابِ , ثُمَّ نَقُولُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قُبِضَ عُمَرُ بن الْخَطَّابِ مَنْ يَكُونُ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ؟ فَنَقُولُ: عُثْمَانُ."**[1] وبعد انتقال النبي صلى الله وبارك عليه وآله مباشرةً، وقَبل تجهيزه – كما كان قبل انتقاله – هَمَّ القوم بقيام الدولة واقتسام السلطة: **"نحن الأُمراء وأنتم الوزراء"**[2]وقال آخر **"منّا أمير ومنكم أمير"**[3]، فهل هذا هو الإسلام الذي جاءبه رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله؟

وظنّوا أن الدين هو الوزارة والإمارة وقيام الدولة والسلطان. ذُكِر أنَّ أبا سفيان حينما رأى جيش النبي صلى الله وبارك عليه وآله الذي جاء به لفتح مكة قال للعباس **"يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً، فقال ليس بملك ولكنها النبوة"**[4]؛ فكانوا يرون الدين الذي أَرسَل اللهُ به رسولَه لحُرية الإنسان وكرامته – لضيق أفقهم وطمعهم بالدنيا- أنَّه مُلكٌ وإمارةٌ وتسلُّط! بينما مِن ﴿**..حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِه**﴾[5] تبليغ الرسالة وتبيين الشرائع التي هي حكم الله وتذكير الناس بها وإنذارهم من مخالفتها، ولا تتعدّى ذلك إلى السيطرة عليهم وتكوين الإمارة والوزارة باسمها ومعاقبتهم على عدم قبولها.

فطُلِبت البيعة بعد النبي صلى الله وبارك عليه وآله لغَرَضِ السلطانِ والإمارة، حتى ممّن كان أكثر الناس عِلماً بالدين، مما يوضح أنهم قد فَهموا – أو أرادوا للناس أن يفهموا - أن الدين هو الإمارة والدولة، وأنّ الأحكام والتشريعات - التي هي الدين- هي المبرّرة لقيام الإمارة أو الدولة، وأن حكم الله، - أي شرعه تعالى - يحتاج إلى وكيل للحفاظ عليه من جنوح البشر عنه. لذلك كان عندهم قيامُ الدولةِ أفضلَ مِن تجهيزِ النبي صلى الله وبارك عليه وآله – أي أن الاهتمام بقيام الحُكم أفضل وأهم من الاهتمام برسول الله صلى الله وبارك عليه وآله – بمعنى أن الاهتمام بتجهيز حاكم للمسلمين أفضل من الاهتمام بتجهيز رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله؛ فيا سرعان ما انقلبوا على رسول الله، لهثاً وراء السُلطة والحُكم، فلَم يحضُروا الصلاة عليه ولا دَفنِه، وصارت الأفضلية عندهم "للحي" وقالوا **"من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات"**[6]. فصدرت الفتوى بذلك مِنهم وظنوا أنهم أحرَص على الدين ممن جاء به، كأن مَن جاء بالدين قد انتهى دورُه برحيله، وصار الأمرُ لِمَن بَعده ليقوم بالرسالة - التي في مفهومهم هي الدولة - بينما لم يَبق شيءٌ مِن الرسالةِ ليَقومَ به أحد، وإلا لكان صلى الله وبارك عليه وآله استَخلَفَ من يُكمل الدين مِن بعده، وهذا فيه اتهامٌ بأنه لم يُبلِّغ الرسالة ويؤدِّ الأمانة، كما أنه شكٌّ في قوله تعالى الذي أكَّد فيه اكتمال الدين وعدم حاجته لإضافة من بَشَر – خليفةً كان أو أميراً - ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[7]! والله سبحانه يقول : ﴿**وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً**﴾[8]. فإن كان الغرض الحفاظ على الدين بمعنى ما أنزله الله، فذلك أمرٌ عند الله وهو الذي تكفل به حيث قال : ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[9]، وإذا كان القصد الحفاظ على إيمان الناس لهدايتهم فالله سبحانه يقول ﴿**لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾[10] ويقول جلَّ

---

1 المعجم الكبير للطبراني
2 صحيح البخاري
3 صحيح البخاري
4 مجمع الزوائد
5سورة التوبة : 97
6 السُنن الكُبرى للبيهقي
7 سورة المائدة : 3
8سورة الكهف : 17
9 سورة الحجر : 9
10 سورة البقرة : 272

شأنه : ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾[1]. فإن كان كل ذلك معلوماً لديهم فإنَّ القصد يكون هو السلطة وإقامة الدولة باسم الدين رغم وضوح هذه الأيات، وإن لَم يكُن مَعلوماً لديهم، فكيف يطلبون الإمارة باسم الدين ولا علم لهم؟!! وإلا لماذا يُطلب من أكثر الناس علماً بالدين بعد رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله وهو سيدنا علي عليه السلام[2] أن يبايِع مُكرَهاً؟ وعلى ماذا يُبايِع؟ من المؤكَّد أنهم ما كانوا ليُفيدوه ببيعتهم عِلماً بالدين أو فقهاً زائداً في شرائع الإسلام، مما يؤكِّد أن البيعة لم تكن إلا لغرَض السلطان على الناس والتأمُّر عليهم. ولا يمكن أن يقال إنّ محاولة إجبار علي عليه السلام على البيعة كان حفاظاً على الدين!! فلا يُعقَل أن يكون علي عليه السلام مُتَّهَماً بِنَقضِ عُرى الإسلام وهَدمِ الشرع وما جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله، فيُجبَر على البيعة للطاعة حتى لا يفعل ذلك!!

وإذا كان علي عليه السلام متَّهماً في دينه فمن هو الذي يتهمه بذلك؟! اللهم إلا إذا كان الدين عندهم هو السلطة كما فهموه أو أرادوا للناس أن يفهموه كذلك؛ فمَن خالَف السلطان عندهم فقد خالَف الدين! والنبي صلى الله وبارك عليه وآله لم يطلب البيعة حتى ممن أراد أن يدخل الإسلام، إلا أن تكون عن طواعية، وما كان يطلب بيعةً - لا طواعيةً ولا إكراهاً - من الذين أسلموا من أجل أن يطيعوه - فقد أطاعوه حباً، وهذه من حدود ما أنزل الله على رسوله. وعليه فما لم يكن لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله فلا ينبغي أن يكون لغيره؛ فلا يُكرَه أُناسٌ من المسلمين على بيعةٍ لمُسلمٍ مثلهم، وإن ظُنَّ أنه لم ينضج إسلامهم بعد أو كان هنالك شكٌ فيما هم عليه من الدين. والبيعة لا تُفرَض حتى على غير المسلمين – كما حصل في فتح مكة - ناهيك عن مَن شَهِد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله وصَحِبَ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله عشرات السنين.

إنّ فرض البيعة على الناس - مسلمين كانوا أو مشركين - أمرٌ لم يأت به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله. فلا ينبغي لأحدٍ مِن بعدِهِ أن يفرضه باعتبار أنه الدين! فالنبي صلى الله وبارك عليه وآله قال لكُفار مكة ومُشركيها بعد فَتحِها **"اذهبوا فأنتم الطلقاء"**[3] وكان فيهم معاوية وأبوه أبو سفيان - لذلك وَصَف سيدنا علي عليه السلام معاوية بأنه طليق بن طليق[4] - ولم يَطلُب منهم النبي صلى الله وبارك عليه وآله بيعَة، فتبرير إكراه الناس على البيعة لا يَقومُ أصلاً ولا يوجد له وجه في الدين. بل ظلَّ أبو سفيان يأخذ مِن الزكاة مِن سَهم المؤلفة قلوبهم إلى أن منع ذلك عمر. واعتبَر عمر فَرضَ اللهِ لِمَن يستَحِق الزكاة رشوة على دين الله، وكان يرى أنَّ الدينَ ذليلٌ على عهدِ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله، وأنَّ سَهمَ المؤلفةِ قلوبهم رشوة عليه؛ إذ أنه تَفَل ومزَّق كتاب أبي بكر الذي اقتطع فيه أرضاً لينتفع بها عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، وقال **" ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والاسلام يومئذ ذليل، وان الله قد اعز الاسلام فاذهبا فاجهدا جهدكما لا أرعى الله عليكما"**[5]. وقد ورد عن عمر أنه قال في زمن خلافة أبي بكر **"الاسلام اعز من ان يرشى عليه؛ فان ثبتُّم على الاسلام بغير رشوة فبها والا فبيننا وبينكم السيف"**[6].

لا يكون المقصود من إجبار المسلمين وصحابة النبي على البيعة إلا فرض الحُكم والتسلُّط والإمارة، حتى على باب مدينة العلم، علي عليه السلام. وتم تكوين الدولةَ بمُبرِّر الحماية للدين والحفاظ عليه وهي رؤية يظنونها "أكمل" من تلك التي ارتضاها لنا رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله. فلم يكن ذلك لتعليم الناس الدين، إذ لم يُضيفوا جديداً للدين الذي بلَّغَه وأكمَلَه النبي صلى الله وبارك عليه وآله، وما ينبغي لهم، ولا لنشره؛ لأنَّ الإكراه ليس من الدين وليس وسيلةً

1سورة النحل : 37

2 قال صلى الله وبارك عليه وآله **"أنا مدينة العلم وعلي بابها"** - المستدرك على الصحيحين

3 سنن البيهقي الكبرى

4 وقعة صفين

5 السنن الكبرى للبيهقي

6 تفسير حقي

ارتضاها النبي صلى الله وبارك عليه وآله لنشره ولم يؤمر به. فتبريرهم لإكراه الناس على البيعة بغرض حماية الدين لا يسنده القرآن ولا تسنده سُنّة النبي صلى الله وبارك عليه وآله وسيرته. والإكراه لا يكون مِن صاحبِ خُلُقٍ عظيمٍ أصلاً، فانتفى أن يكون مما بُعِثَ به نبي الرحمة الذي بُعث ليتمم صالح الأخلاق، بل هو خروجٌ عنه؛ قال تعالى : ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[1].

ومعلومٌ أن الرسل صلوات الله عليهم، ما عليهم إلا البلاغ - لا أكثر - وهذا هو ما قام به الرسول محمد صلى الله وبارك عليه وآله، قال تعالى : ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾[2]، ولَم يكن مَلِكاً ولا سُلطاناً ولا أميراً - كسائر الرُّسُل صلوات الله عليهم - وهو ما يجب أن يكون عليه من يَنذُر نفسه للدعوة مِن بعده، ولا يتعداه. فكان واجب الذين يأتون مِن بعده الدعوة بالحكمة والموعظة الحسَنة لمن لم يؤمنوا ولا يتعدُّوا ما كان عليه النبي صلى الله وبارك عليه وآله ومَن سَبَقَه من الرُّسُل، وهو القيام بالتبليغ فقط دون إكراهٍ للكفار والمشركين. ولا مُبَرِّر لوجودِ دعوةٍ لمن أسلَمَ إلى الإسلام، وما كان ينبغي طلبُ بيعةٍ للطاعة ممن أسلموا وإجبارِهم عليها، وإلا أُحرِقَت عليهم ديارهم[3]، فإنّ ذلك لم يكن من نهج الرسول صلى الله وبارك عليه وآله.

فأُعطِيَت القداسة التي كانت لِذاتِ الرسولِ صلى الله وبارك عليه وآله ولتشريعاته بِفَرضٍ من الله سبحانه - والتي لا تجوز لغيره - للسلطان أو الحاكم، حتى أصبح تشريع الحاكم هو الساري وهو الدين عندهم، وإن خالف تشريعُه تشريعَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله! فلا يوجد سند من النبي صلى الله وبارك عليه وآله على إجبار الناس على إخراج الزكاة أو قتالهم على ذلك. كذلك لا يَحِقُّ لأحَدٍ أن يَمنَعَ الزكاة مِمَّن فَرَضَها اللهُ لَهُم، كَسَهمِ المؤَلَّفةِ قلوبهم، ويقول إن ذلك رشوةً في دين الله! ولا يحق لأحد أن يغيّر حداً من حدود الله، كأن يرفع حدّ شرب الخمر من أربعين إلى ثمانين جلدة. فالدين قد صار عندهم للسلطان لرؤيتهم للدين أنه حكمٌ وسلطان. أمّا مكانته صلى الله وبارك عليه وآله، والتي لا تجوز لغيره، فقد جعلوها لكلّ من يستطيع أن يُكرِه الناس على البيعة، وأصبح رأس الدولة هو الدين عندهم، ويُمكنه أن يُشَرِّع ويُغَيِّر في التشريع، حتى ولو كان تشريع المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله. ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾[4] وما حكم الجاهلية إلا التسلط وتقديس الحكام وأوامرهم وإتباعهم وهو الطاغوت.

أَمَرَ اللهُ نبيه صلى الله وبارك عليه وآله أن يدعو الكفار والمُشركين بالحِكمة والموعظة الحَسَنة دون إكراه في تبليغ الرسالة وما كان يأمر أحداً أن يشهد ألا إله إلا الله وأن مُحمداً رسول الله. أما الذي أَخَذَ البيعة بعده من الناس لم يَدْعُ المشركين والكفار بالحكمة والموعظة الحسنة، بل ولا حتى الذين شهدوا ألا إله إلا الله لم يجدوا المعاملة بالتي هي أحسن؛ إنما ووجِهوا بالسيف؛ وقُتل ذلك المسلم - مالك بن نويرة - الذي أحجم عن دفع الزكاة للحاكم، وسُبيَت زوجته ونكحها خالد بن الوليد في الليلة نفسها، وتلك حكاية تحتاج إلى تأمل طويل لا مجال له هنا ولكن نقول باختصار إن كان تزوجها تلك الليلة فالأمر لا يستقيم إذ هي في حالة حداد وفترة عدَّة، هذا إذا افترضنا جدلا أن امرأة تقبل الزواج طوعاً مِن قاتِلِ زوجِها ودمه لم يجف بعد..!، وإن الأمرُ نكاحٌ قسريٌ فذلك والعياذ بالله نوع من السفاح والاغتصاب وله أحكامه، وعلى كل حال فقد أنكر هذا الفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وطلب من أبي بكر رضي الله عنه معاقبته، وقال لخالد **"قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته والله لأرجمنك بأحجارك"**[5]. فشهادة عمر رضي الله عنه بأنه "امرؤ مسلم" تنفي عنه الرِّدَّة التي قالوا إنَّ الحروب قامت مِن أجلِها، وكلمة "نزوت" هنا بالغة التعبيرعن الحالة، ولكنّ أبابكر رضي الله عنه رَفَض معاقبة خالد؛ حتى عمر نفسه رضي الله عنه حينما صار حاكماً لم يعاقب خالداً واكتفى بعزله من قيادة الجيش، لأنّ الحاكم كما فُهِم عندهم يفعل ما يراه، فصار حُكمُه عندهم مُقدَّساً وأمرُه تشريعاً، ولا يتقيَّد بتشريع مَن سَبَقَه ولو كان معصوماً! فإنه لم تقم دولة باسم الاسلام – منذ السقيفة - إلا وسُلِبَت فيها الحُرِّيات منذ البيان

---

1 سورة البقرة : 256

2 سورة آل عمران : 144

3 ذكروا أن عمر أراد حرق دار فاطمة عليها السلام إن لم يخرج من فيها لمبايعة أبي بكر - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

4 سورة المائدة : 50

5 تاريخ الطبري

الأول، وقامت على القهر وإجبار الناس على ما عليه رأس الدولة، ومنع الحرية، والحَجْر على أصحاب الرأي المخالف وعدم قبول الآخر. ولهذا نجد طائفةً من المسلمين يرون في بيانِ أولِ دولةٍ باسم الإسلام إعلاناً لعهدٍ جديدٍ وسُلطةٍ مُطلَقةٍ باسم الدين، بسُنَنٍ جديدةٍ لا يُلزِمُها ما سَبَقها مِن سُنَّةِ محمد صلى الله وبارك عليه وآله - **"من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات"**[1]. وهذا يتناسق مع إنشاءِ الدولة، لأنه لابد لها مِن سُلطةٍ وإجبارٍ للرعايا على ما عليه الحاكِم، وهو مُعاكِسٌ للدين الذي لا إكراه فيه. وجاءوا بحديثٍ نَسَبوه للنبي صلى الله وبارك عليه وآله **"عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ"**[2]. ولكن مما يُضعِف هذا الحديث أن عدد هؤلاء الخلفاء الراشدين لم يُحدَّد - إذا صح عندهم إسناد هذا الحديث - ولم تُحدَّد صفاتهم المميِّزَة لهم، لا بقرآن ولا بحديث!! ويبقى مَن هُم الخلفاء الراشدون وكم عددهم أمراً مُبهَماً؛ مما يجعل الحديث المنسوب فاقداً للتطبيق في الواقع!! أو يكون كلُّ حاكمٍ مسلمٍ خليفةً راشداً، وتشريعُه سُنَّة!! بينما السُنَّة هي ما فعله رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله أو قاله أو أقرَّه. ويبقى التشريع الإسلامي على ضوء هذا الحديث هو تشريع الحُكّام في كل زمان..!! ونكون بذلك جعلنا الحكام أنبياءاً ورسلاً، لهم سُنَن كما للنبيّ صلى الله وبارك عليه وآله!! وتكون الشهادة عُدِّلت إلى "أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً وبعض أمته رسل الله"! لأنّ لهم سنناً يجب إتباعها كما لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله!! ونزعم أن رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله قد أوصى باتِّباعها وهذا يثبت لهم العصمة التي لا تجب إلا لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله!! ويكون هناك شرك في الرسالة وأندادٌ لرسول الله كما أشرك الأولون في الألوهية وجعلوا أنداداً لله!! والأخذ بهذا الحديث يعني أن النبي صلى الله وبارك عليه وآله قد أعطى الحق لغيره في نسخ سنته ورفع صوته عليه!! وأنه ترك شيئاً في الدين لم يوضحه، أي أنه لم يُبَلِّغ الرسالة كاملةً ولم يؤدِّ الأمانة. وعَجِزَ - وحاشاه - عن إكمال تبيينها، ليكملها مِن بَعدِهِ أناسٌ أَوكَلَ إليهم ذلك، ولم يُحَدِّدهم ولم يُسَمِّهم. وعلى الناس أن يجتهدوا - وكيف يجتهدوا ويبحثوا؟ - للتعرُّف عليهم، ليأخذوا منهم ما تبقّى من السنّة في الدين!!! وأين كل ذلك من قول الله تعالى ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[3]؟ وإذا كان هناك خلفاء راشدون يجب إتِّباع سننتهم، وسَمِع الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم ذلك الحديث من النبي صلى الله وبارك عليه وآله، فذلك يعني أن أبابكر رضي الله عنه ليس خليفةً راشداً يجب اتباع سنته؛ لأن عمر رضي الله عنه رفض أن يأخذ بما كان عليه أبو بكر. فقد رَفَعَ حَدَّ شُربِ الخَمرِ مِن أربعين ضربة بالجَريد والنّعال إلى ثمانين جلدة بالسّوط، مُخالِفاً بذلك ما كان عليه أبو بكر في اتِّباعِه سنة النبي صلى الله وبارك عليه وآله. وخالَفَهُ أيضاً في أمر متعة النساء ومتعة الحج إذ لم يُحرِّمهما أبو بكر وقال **"متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أنهى عنهما أو أعاقب عليهما: أحدهما متعة النساء فلا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى أجل إلا غيبته في الحجارة، والأخرى متعة الحج افصلوا حجكم عن عمرتكم، فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم"**[4]، فلو سلمنا بأن هذا الزواج زنا – كما يرى هذا الحديث المنسوب لعمر – فإن حكمه لا يكون الرجم بالحجارة بالضرورة. نُسب إليه قول **"والله إني لأنهاكم عن المتعة وإنها لفي كتاب الله ولقد فعلها رسول الله"**[5]، وإنه لأمر عجيب أن يُنسَب لعمر رضي الله عنه رفضُه لما في كتابِ الله وما فَعَله رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله!!. وعجيبٌ أيضاً أن يوردوا في حَقِّه قولَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله حينما سَمِعَه يُصلّي بِالناس **"يأبى الله ذلك والمسلمون"**[6]، مِما جَعَل بعضَ المسلمين يَذهب إلى أنَّ حديث النبي هذا مَنعاً لِعُمر مِن الإمامةِ مُطلَقاً! وعجيبٌ أيضاً أن يُنسَب لعمر رضي الله عنه أنه بالَغَ في كِتافِ عَم النبي العباس رضي الله عنه وكان يرجو قَتلَه مع

---

1 صحيح البخاري
2 صحيح ابن حبان
3 سورة المائدة : 3
4 معرفة السُنن والآثار للبيهقي
5 السنن الكبرى للنسائي
6 سيرة بن هشام

الأسرى - حين كان بين أسرى بدر - حتى مَنَعَ أنينُ العباس النومَ عن رسولِ الله صلى الله وبارك عليه وآله، فجاء الأنصار وفَكُّوا وثاقَه وحَرَسوه، وقال له العباس **"أما والله يا عمر ما يحملك على شد وثاقي إلا لطمي إياك في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"**[1]. بينما دَفَع عبد الله بن أبي بن سلول قَميصَه للعباس حينما كان بين الأسرى[2]؛ لذلك لم يكُن غريباً أن يُعطي رسولُ الله صلى الله وبارك عليه وآله قميصَه الشريف ليُكَفَّن فيه عبد الله بن أبي بن سلول، ويُصلي عليه[3].
وجاء في سيرة بن هشام أن عمر حين حَضَرته الوفاة قال **"(إنْ أَسْتَخْلَفَ فَقَدْ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنّي، وَإِنْ أَتَرَكَهُمْ فَقَدْ تَرَكَهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنّي.) فَعَرَفَ النّاسُ أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمْ يَسْتَخْلِفْ أَحَدًا"**[4] وهذا يتناغم مع رأي عمر **"..إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة.."**[5]. كذلك لا يكون عمر رضي الله عنه خليفةً راشداً يجب إتِّباع سنَّتِه، لأنّ عثمان رفض أن يأخذ بما كان عليه عمر بن الخطاب في قصر الصلاة، كما أعاد عثمان رضي الله عنه الوزغ[6] طريد رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله - وهو ما لم يفعله أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه - وأعطاه ألف دينار ومنحه أرض الفدك، التي رَدَّها عمر بن عبد العزيز – الخليفة الخامس عندهم - إلى أبناء السيدة فاطمة عليها السلام، مخالفاً أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه وعثمان رضي الله عنه! وكذلك بالنسبة لعلي عليه السلام لا يكون أبو بكر وعمر رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين الذين لهم سُنَّة واجبة الإتباع، لأنه رفض الإقتداء بسنتهما حينما عَرَض عليه عبد الرحمن بن عوف ذلك للخلافة، وهو أحرص الناس على الالتزام بأمر أخيه النبي صلى الله وبارك عليه وآله فقد قال صلى الله وبارك عليه وآله **"أنت أخي في الدنيا والآخرة"**[7]؛ فإذا سمع منه أمراً باتِّباع سنة خلفاء راشدين فلا يمكنه المخالفة أو الرفض لذلك الأمر.

وعليه فلا توجد سُنّةٌ ملزِمةٌ مُتَّبَعة من أيٍّ منهم!! بل كلٌّ منهم خالَف مَن قبله ورَفَضَ العمل بما كان عليه!! وهذا كفيلٌ برد الحديث مِن الخلفاء الأربعة أنفسهم! ولكن، على فرض صحة الحديث، يبقى سؤالٌ تجاوزه الكثيرون، ألا وهو هل الخلافة التي يُشير إليها الحديث المذكور تعني الحُكم والإمارة؟ أي بمعنى أن الخليفة هو مَن يَقهَر الناس بحُكمِه ويأخذ البيعة منهم عنوة؟ أم أن الخلافة المعنية في الحديث - إن صَحَّ - هي المرجعية التي يحتاجها الناس ويرتضونها لِفَك ما يلتبس عليهم في أمور دينهم في تعاملهم مع خالقهم وتعاملهم الاجتماعي؟

---

1 كنز العمال
2 الطبقات الكبرى لابن سعد
3 صحيح مسلم
4 سيرة بن هشام
5 صحيح البخاري
6 الحَكَم بن أبي العاص
7 الترمذي

القرآن والسلطان !

السلطان بمعنى الإمارة والحكم السياسي لا علاقة له بالدين : إذ أوضح النبي صلى الله وبارك عليه وآله التباين بينهما فقال **"إنّ الكتاب والسلطان سيفترقان"**[1] وتَبِع السُلطةَ إكراهُ الناسِ بالسيف على الطاعة إثر البيعة التي كانت فلتة كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه **"فلا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها"**[2] فقد انعقدت بيعة أبي بكر رضي الله عنه بأربعة خامسهم سالم مولى أبي حذيفة[3] الذي وَرَدَ فيه حديث رضاعة الكبير[4]، وهو الذي قال فيه عمر رضي الله عنه حين حضرته الوفاة **"لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته"**[5]؛ فهل كانت رضاعة سالم يا ترى ستصبح سنةً مِن خليفةٍ راشد؟؟ وقال عمر هذا على الرغم مما أوردوه من حديث **"الأئمة من قريش"**[6] الذي احتجوا به لإبعاد الأنصار عن الخلافة. ثم بعدها بُنِيَت خلافة عمر نفسه رضي الله عنه على هذه الفلتة إذ عَيَّنَه أبوبكر رضي الله عنه دون استشارةِ أحَدٍ، ودون التفاتٍ لقول الله تعالى ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[7] وقوله تعالى ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾[8] وبُنِيَت خلافةُ عثمان كذلك على هذه الفلتة إذ عَيَّن عمر ستة ليكون الخليفة من بينهم. فكان التفكير في السلطان والحُكم والإمارة، لا في القرآن، وقالوا **"إنّ الله لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآن"**[9]! وكيف يصِحُّ ذلك والله سبحانه يقول : ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**﴾[10]!! وقال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله في قول الله تعالى : ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ**﴾[11] **"لو أن رجلاً موقناً بها قرأها على جبلٍ لزال"**[12] فهل هناك قوة أكبر من هذه؟ وعلى الرغم ذلك، لَم تُسَلَّط تلك القوة الإلهية الموجودة في القرآن لإكراه الناس وإجبارهم على الدين. وقد يُرى في مقولتِهم تِلك فساداً في الاعتقاد؛ إذ لو كان الحقّ فيما زعموا أي في تفوّق قوة السلطان على القرآن لَبَعَثَ اللهُ سبحانه رسولَه سُلطاناً بسلطة دنيوية يُكرِه الناسَ على دينِ الله؛ لكن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله يَستَمِدُّ سلطته من الله، ورغم ذلك لَم يُكرِه أحداً. والحاكم أو الأمير يستمد سلطته ممن حوله ويُكره الناس على طاعته، وهذا هو سُلطانه. ولكن أثبت الله سبحانه وتعالى في مُجريات الأحداث قَتل عُثمان وهو صاحب السلطان آن ذاك، ولم يُغنِ عنه سلطانُه شيئاً، وهو الذي نُسبَت إليه هذه المقولة. فَشَتَّانَ بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّب! فلا توجد مُماثَلةٌ أصلاً ولا مُقارَنة بين النبي صلى الله وبارك عليه وآله ومَن جاء بَعدَه مِن الحُكّام والأُمراء، إذ الفرقُ شاسعٌ بين تبليغٍ بإحسانٍ دون إكراه ولا تسلُّط، وبين دعوةٍ بإكراهٍ وإجبارٍ وتسلُّط .. وجاءوا بحديثٍ نسبوه للرسول صلى الله وبارك عليه وآله **"أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"**[13]، والقرآن والسيرة النبوية يُنكِران هذا الحديث المنسوب للنبي صلى الله وبارك عليه وآله، فلا نجِدُ في كتاب الله آيةً واحدة تُشير إلى أمرِ الله للرسولِ بقتالِ الناسِ على الدين، بل العكس تماماً، حيث بيَّن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[14] وما كان مِن أمرٍ مِن الله سبحانه لرسوله

---

1 مجمع الزوائد

2 صحيح البخاري

3 الأحكام السلطانية

4 صحيح مسلم – "جَاءَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْ دُخُولِ سَالِمٍ وَهُوَ حَلِيفُهُ فقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْضِعِيهِ قَالَتْ وَكَيْفَ أُرْضِعُهُ وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ"

5 نهاية الأرب في فنون الأدب

6 مسند أحمد

7سورة الشورى : 38

8 سورة آل عمران : 159

9 ونُسب ذلك إلى عثمان بن عفان – قصص الأنبياء

10 سورة الرعد : 31

11 سورة المؤمنون : 115

12 تفسير ابن كثير

13 صحيح مسلم

14 سورة البقرة : 256

الكريم هو ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1]. قال رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله **"لا يخرج من هذا إلا حقاً"** وأشار إلى فمه الشريف، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾[2]، ومُحال أن يكون في حديثه مخالفةٌ لكتاب الله عزَّ وجلّ. أما ما يراه البعض في معنى الآية ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾[3] فالقتال هنا بادٍ من الطرف الآخر والمُسلِمون مُعتدىً عليهم ﴿**..يُقَاتَلُونَ..**﴾[4]. ومع ذلك فهم مظلومون، ولهذا جاء الإذن الإلهي بِنَصرِهم ضد العُدوان، لا بابتداءِ القتال والعدوان، لأنّ الله ﴿**لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[5].

أما السيرة النبوية، فلننظر فيها إلى الحروب؛ فنجد أولاً تسميتها بغير مُسَمَّياتها، فسمّوا المعارك التي كان النبي صلى الله وبارك عليه وآله يدافع فيها عن المدينة غزوات: فمعركة بدر لم تكن غزوةً من أجلِ فَرضِ الإسلام، بل كان القصد أولاً هو اعتراض عير قريش القادمة من الشام كما أوضحنا. ولكن جاء المشركون بجيشهم إلى المدينة بقَصدِ إذلالِ أهلها، ففُرِضت الحرب على المُسلمين، فكانت معركة بدر دفاعاً عن المدينة. فكيف جاز لهم تسمية حرب دفاعية بأنها غزوة؟ ورغم أنها قد رَفَعَت مِن قَدرِ المسلمين وقوَّت شوكتهم إلا أنها لم تكن حرباً من أجل فرض الدين على الكفار ولا من أجل أن يقولوا لا إله إلا الله. ومعركة أُحُد كانت كذلك دفاعاً عن المدينة، وكان الغزاةُ الكفارُ من قريش فكيف تسمّى غزوة إسلامية بمعنى أن الرسول هو الغازي وهو لم يكن حينها إلا مدافعاً ضد غزاة؟ ومعركة الأحزاب أو الخندق كانت دفاعاً عن المدينة وكان الغزاة هم الأحزاب، ولَم تكُن أيٌّ مِن هذه المعارك مِن أجلِ فرضِ لا إله إلا الله على المُشركين. وما سُمِّيَت "غَزَوات" إلا لتساعد على هضم الحديث المنسوب للنبي صلى الله وبارك عليه وآله **"أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"**[6] كما أنّهم لم يتورّعوا كذلك من أن ينسبوا إليه حديثاً لا يصلح إلا لعصابات النهب المُسلّح، ألا وهو **"جُعِل رزقي تحت رمحي"**[7].

والغزوة الوحيدة التي لم تُسمّ غزوة هي فتح مكة .. فهل أَمَرَ النبي صلى الله وبارك عليه وآله المهزومين فيها أن يقولوا لا إله إلا الله؟ فلو كان الحديث المنسوب إليه صحيحاً لكان أولُ ما يطلبه النبي صلى الله وبارك عليه وآله من أصحاب البلدة التي فتحها هو أن يقولوا لا إله إلا الله، فقد جاءهم فاتحاً وانتصَر عليهم دون قتال، فقد كان منصوراً بالرعب[8]. وما كان أَحَدٌ يمكنه رفض قول لا إله إلا الله إذا أمَرَهُم بها، ولكنه صلى الله وبارك عليه وآله - وهو صاحب الرسالة - لم يكن ليخرج عن حدود ما أنزل الله على رسوله وهو ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[9] ولذلك تبرّأ صلى الله وبارك عليه وآله مِن قَتْلِ خالد بن الوليد لبعض المُشركين في مكة، وقال **"اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد"**[10] لِقتلِه أولئك النفر من المشركين، وأَمَر علي بن أبي طالب عليه السلام أن يَدفع ديَّتهم[11]! فلو قال الرسول صلى الله وبارك عليه وآله لأهل مكة المشركين، وهو مُنتصِرٌ عليهم وهم مهزومون أمامه، قولوا لا إله إلا الله لقالوها دون تردُّد، ولكن كان هذا يعدّ نوعاً من الإكراه لا عن طواعيةٍ واختيار - الذي هو الأساس في الدين - فقال لهم نبي الرحمة **"اذهبوا فأنتم الطلقاء"**[12] وهنا يجب على كل مسلم أن يسأل هذا السؤال: لماذا فَتَح النبي صلى الله وبارك عليه وآله مكة؟

---

1 سورة النحل : 125
2 سورة النجم : 3
3 سورة الحج : 39
4 سورة الحج : 39
5 سورة البقرة : 190
6 صحيح مسلم
7 تهذيب الكمال
8 قال النَّبِيَّ صَلَّى الله وبارك عليه وآله **"أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"** – صحيح البخاري
9 سورة البقرة : 256
10 صحيح البخاري
11 دلائل النبوة للبيهقي

12 سنن البيهقي الكبرى

لو كان الحديث المنسوب إليه "**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله..**"[1] صحيحاً لكان أول ما يطلبه مِن الناس هو أن يقولوا "لا إله إلا الله"، ولكنه لم يطلب منهم ذلك، فَثَبُتَ أنَّ هذا ليس هو أسلوب الدعوة إلى لا إله إلا الله فكيف يقول أَحَد بعد ذلك أن الحرب هي وسيلة لنشر الدين وفرض الإسلام على الناس؟ فهل كان فتح مكة غير إزاحة طاغوت الجاهلية - الذي يَفرِض الدين على الناس- ومنح الحرية للجميع ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[2]؟ ولا مجال لمقولة "فتوحات إسلامية" بغرض فرض الإسلام على الناس!!. إنما كان فتح مكة درساً عملياً لِمن يرى أن الدعوة إلى الإسلام إنما تكون عن طريق الحرب أو الإكراه.

جاء الإسلام بالحرية الكاملة للإنسان، ليعتنق ما شاء من الدين والفكر، مع التزامه بصالح الأخلاق التي هي الغاية من الرسالات، وساوى بين الفقير والغني، والضعيف والقوي؛ فالإنسان إنسانٌ بِفكرِه وعقلِه لا بتسلُّطِه وجبروته ومالِه. وهو أمرٌ مُغايرٌ تماماً لما يكون عليه الحُكام مِن إجبارِ الناس وحملِهم على ما هم عليه. فأئمّة الكُفر في مكة كانوا يحجرون على الناس حرّيّة الفكر والدين، ويمارسون أبشع أنواع الإرهاب الفِكري لإجبار الناس على دينهم - وهذا هو حُكم الجاهلية الذي أَنكَرَه الإسلام ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾[3]؟ - حتى بلغ بهم التسلُّط قَتْل مَن يخالفهم الرأي في الدين، فقد جاء أن عمر بن الخطاب قبل إسلامه كان يعذب جارية مؤمل بن حبيب بن عدي وتدعى لبيبة وقيل أمينة لإكراهها على ترك الإسلام. وكان يعذب جارية أخرى تُدعى زنيرة كان أبوالحكم يشاركه في تعذيبها وروي عنه أنه كان يكف عن ضربها إعياءً لا رحمةً[4]. وعُذِّب بلال وآل ياسر. وما كان أئمة الكُفر يحترمون عهداً ولا كلمة، حيث نقضوا حلف الحديبية وناصَرُوا قبيلة بَكر وأغاروا معهم على خُزاعة التي كان بينها وبين المسلمين حِلفٌ وميثاق، وقتلوهم داخل الحرم المكي! فاصطدم نهجُ الدينِ بهذا الطاغوت، فكان لابد من إزالته بقصد الحرية للإنسان، لا بقصد فرض الدين عليهم. قال تعالى : ﴿**فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ**﴾[5]. فكان القتال وكان فتح مكة الذي انتهى بأعظم مقولةٍ مِن أكرَمِ مُنتصر لمهزومين أمامه، توضح عظَمة الفاتح وتعظيمه لحرية الرأي والفكر الإنساني ليعتنق الفرد ما شاء من الدين: "**اذهبوا فأنتم الطلقاء**"[6] والخطاب هنا موَجَّه للمشركين، أي ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[7] بعد إزالة طُغيان حُكّام مكة - أئمة الكفر الذين كانوا يحجُرون على حريةِ الفِكرِ ويمنعون الناس عن اعتناق ما شاءوا من الدين. وكان من المشركين يومها معاوية و أبوه أبو سفيان. ولكن رسول الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله قال "**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**"[8]، مُبيناً لهم أن الغرض ليس القتال وإبادة الناس. فَظلَّ أبو سفيان مِن المؤلفة قلوبهم[9] ويُعطى مِن أموالِ الزكاة حتى أوقف ذلك عمر رضي الله عنه[10]. فما كان فتح مكة إلا لحرية الناس من الإرهاب الفكري وتحريرهم من حُكم الجاهلية والبغي والتسلُّط الذي يمنعهم حرية الاختيار واعتناق ما شاءوا من الدين، وعقد ما ارتضوا من الأحلاف والمواثيق. فجاء الأمرُ الإلهي ﴿**...إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...**﴾[11] بمَنعِ المُشركين - ولا يمتد لغيرهم - مِن دخولِ المسجد الحرام لِعَدَم مُراعاتهم لِحُرمَتِه واعتدائهم على المسلمين فيه - كما فعَلَت قبيلة بَكر وقتلوا الخُزاعيين فيه - فالمشركون لا حُرمة لهم للدينِ وأهلِه، وهم معتدون بطبعهم لعدم قبول الآخر، قال تعالى : ﴿**لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ**﴾[12]. فالأمر بالمنع من دخول المسجد الحرام موقوف على المشركين ولا يشمل أهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم. والحرب في الإسلام لا تكون

1 صحيح مسلم
2 سورة الكهف : 29
3 سورة المائدة : 50
4 سيرة بن هشام
5 سورة التوبة : 12
6 سنن البيهقي الكبرى
7 سورة الكهف : 29
8 صحيح مسلم
9 دلائل النبوة للبيهقي
10 السنن الكبرى للبيهقي
11 سورة التوبة : 28
12 سورة التوبة : 10

بقصد إجبار الناس وإدخالهم في الدين عنوةً، فذلك أمرٌ لا يُقرُّه الإسلام بل يُعارضه تماماً، فكان فتح مكة أعظم مثال للحرب في الإسلام إن كان لابد منها.

القتال لا يكون إلا لحرية الإنسان ولإزالة البغي والعدوان. قال تعالى : ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**﴾[1]، فشُرع القتال هنا من أجل مُحاربة البغي والعدوان والتسلُّط، حتى لا يكون هناك تسلُّطٌ على الحرية الإنسانية تنعدم معه مُراعاة الأخلاق في السلوك والتصرفات. فالحرب في الإسلام، إن كان لابد منها، فلا تكون إلا أخلاقيّةً لا عدوان فيها لأنّ الله لا يُحِب المُعتَدِين، قال تعالى : ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[2]، والآيات التي جاءت بعد هذه الآية مرتبطة بها. فلا تُقرأ آية ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ**﴾[3] بمَعزلٍ عنها حتى لا نكون من ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾[4]، فكيف جاز لهم أن يُسمّوا آيةً في كتاب الله بـ"آية السيف"؟ بينما ليس للسيف أصل في الدعوة إلى الله، لأنه ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[5]، ولا بَغي فيها على العالمين.

ومِن الفهم الخاطئ - أو المُحَرَّف أو المُنحَرِف - للدين انطلق ما يُسمّى بالفتوحات الإسلامية والتي لا تَصِحّ تسميتها بذلك. فما هي إلا استعمار عربي لتلك البلدان الآسيوية والأوروبيّة والإفريقية. وما كان الإسلام المُحَمّدي مطروحاً بالسيف والعُدوان والغزو في عهد النبي صلى الله وبارك عليه وآله! ولكنّهم مَهَّدوا لغزوهم واستعمارِهم بتسمية الحروب الدفاعية للنبي صلى الله وبارك عليه وآله عن المدينة بالغزوات. وكان في فتح مكة ما يكفيهم في كيفية الدعوة إلى الإسلام - إن كان نشرُ الدين هو القَصد؛ فلم يكن فتحُها من أجل مغانِم ولا مَكاسِب ولا أسرى ولا فرضِ ضرائب أو جباية أموال ولا حتى فرض قول لا إله إلا الله. بل كان لإزالة طاغوت أئمة الكُفر الذين يُمارسون قمع الناس في حُرِيّة الفكر. كان الغَرَض تحرير الناس حتى يُمارسوا حياتهم الفكرية في حرية تامّة دون تَسَلُّطٍ من الحُكام، وهو إرساء قاعدة الإسلام الأساسية ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[6] ليدخل من أراد أن يدخل في الدين عن رغبة وحب. ولم يكن سلباً للحرية وإكراهاً للناس على الدين، بل هو العكس تماماً لما كان يُسمَّى بالفتوحات الإسلامية. لذلك ما كان ينبغي أن تُسمى تلك الحروب بالفتوحات الإسلامية، إنما هناك استعمار عربي يتحمّل الغُزاة كُل ما كان فيه من مساوئ، ولا علاقة للإسلام به[7]، والإسلام بريء من عُدوانيته وكل مسالبه ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[8]. ولا يكون انتشار الإسلام بالسيف والغزو والتسلُّط والإرهاب الفِكري، والذي هو أبعد ما يكون عن الخُلُق المحمدي وعن الدعوة التي جاء بها نبي الرحمة صلى الله وبارك عليه وآله والتي بيّنها في قوله" **إنما بُعثت لأتمّم صالح الأخلاق**"[9]. فكُلُّ دعوةٍ إلى الإسلام خارجة عن هذا الإطار فالإسلام بريء منها. فالإسلام ليس سُلطةً ولا تسلُّطاً ولا حكومة ولا تَجَبُّراً ولا إكراهاً ولا إذلالاً ولا تَعالٍ على الناس، إنّما هو شريعة ونظام حياة أنزله الله. والدعوة إليه لا تكون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، لا إكراه فيها ولا سلب لحرية الإنسان.

وقد كان كثيرٌ مِن تلك الحروب المُسَمّاة بالفتوحات الإسلامية ضد أهل دينٍ مِن رسالات الله المُنزلة، وما جاء الإسلام المحمدي حرباً على الرسالات السماوية، بل أكَّدَ احترام تلك الرسالات السابقة التي يجب ألا يكون فيها تفريقٌ بين الرسل، كما يجب الإيمان بكتبها واحترامها. وقد جعَلَت تلك الحروب دين الله سبباً للقتل وسَفك الدماء، بينما الدين عند كل الرسل هو الإسلام الذي لم يأت إلا بالسلام لإسعاد البَشَرِيَّة ولنشر السعادة والحُب بين الناس. وقد بيَّن الله سبحانه صحة

---

1 سورة الحجرات : 9
2 سورة البقرة : 190
3 سورة البقرة : 193
4 سورة الحجر : 91
5 سورة البقرة : 256
6 سورة الكهف : 29
7 وَرَدَ في كتاب البداية والنهاية أن المُغيرة بن شعبة تزوج ثمانين امرأة، وقيل ثلاث مائة امرأة، وقيل أحصن بألف امرأة.
8 سورة البقرة : 190
9 مسند أحمد

العلاقة بين المُسلمين في كل الأديان حينما وَعَد المُسلمين في المدينة بأن الروم - وهم أهل كتاب - سينتصرون على المُشركين في بِضع سنين ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ**﴾[1]، وهذا هو التعايش بين أهل الدين - يفرح المسلمون بالمدينة لانتصار الروم على الفُرس الذين سبق أن اعتدوا عليهم، لوجود علاقةِ الدين الذي كله من عند الله ﴿**وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[2]؛ إذ لابد للمؤمنين في كل الرسالات أن يكون لهم إعمار الأرض بما شَرَعَ لهم من الدين مكان المِلل الكافرة، وهو الاستخلاف الذي وعَد اللهُ عبادَه المؤمنين ليُمَكِّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[3]، ولا يعني الاستخلاف الإرث الحكومي السُلطوي ممن سبقهم، بل يعني الخلافة الربانية لإقامة الدين الذي هو التعامل بما أنزل الله من التشريعات. فلم يَرث موسى عليه السلام حُكم فرعون ولم يرث إبراهيم عليه السلام حُكم النمرود، وقد استخلفهم الله مِن قبل ومَكَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[4]. ويرى البعض أن ذلك الاستخلاف سيكون عند ظهور المهدي المسيح عيسى بن مريم عليه السلام[5] في آخر الزمان.

1 سورة الروم : 4- 5

2 سورة الروم : 47

3 سورة النور : 55

4 سورة المائدة : 3

5 ويسند هذا الرأي حديث **"لا مهدي إلا عيسى بن مريم"** - سنن ابن ماجة

قد يَفهم البعض أنّ الإسلام لا يعترف بوجود دولة، أو يرفُض تكوين دولة، وهذا أمرٌ لا يقول به من يعرفُ حدود ما أنزَل الله على رسوله. فالأمرُ المرفوض هنا هو أن تكون هناك دولة باسم الإسلام أو الدين، فالإسلام لا تُمَثّله دولة ولا تَحُدُّه حدودٌ كما ذكرنا. بل المطلوب هو قيام دولة مواطنة غير منحازة لدين، يستوي فيها الناس مهما اختلفت عقائدهم، ويكون منهجها الإصلاح، قال تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[1]. فالشرط في بقاء النُّظُم والحكومات ونجاتها من الأمر الإلهي بالهلاك هو أن تكون صالحة . فالنظر هو إلى صلاح القائمين بأمر تلك الحكومات أو النظم أو القُرى ، وليس النظر إلى دينهم . فشرط النجاة موفور لهم ولو كانوا مُشركين ، ما داموا مصلحين ، كما بينت الآية الشريفة ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ**﴾[2]؛ والظُّلم هو الشِّرك قال تعالى : ﴿**..إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[3]. **فالله سبحانه لا يُهلك القُرى لِشركِهم إذا كانوا مُصلحين.** أمّا كيف التوافق بين وجود دولة والإسلام فهو أن يَعلَم الناس أن الإسلام هو التشريعات التي أنزلها الله وهي فوق كل تشريعات البَشَر، ولا تتحكَّم بها الدولة أو تَتَّخذها أداةً للسيطرة - بمعنى أن الحاكِميةَ لله أو الحُكم لله، فهو الحاكم بتشريعاته وهو الرقيب عليها، وهو الذي يعاقب عليها في الآخرة أو يعفو – ولا يحق لبشر أن يكون حاكماً مُتسلِّطاً باسمها إلا أن يكون وكيلاً عن الله وهو المحال ﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**﴾[4] فيستوي في الدولة رأسها وخفيرها. فإذا تعدّى الحاكم في الدولة على حدٍّ من حدود الله أو خالَفَ تشريعاً، رُدَّ عليه ولا يُقبَل منه حتى من عامة الناس. فلا تنفي التشريعات الإسلامية وجود الدولة، ويكون الفرد في الدولة التي الحاكم فيها التشريعات الإسلامية آمناً على نفسه، عالِماً بحقوقه وحقوق غيره، لا سُلطان لأحدٍ عليه بسببها ولا يخاف من حاكمٍ ولا سلطان - وهي الحرية - بل خوفُه من الله سبحانه الرقيب عليه، صاحب التشريع الحاكم ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾[5]. والفَرقُ كبيرٌ بين أن يكون الله هو الحاكم بتشريعاته، وبين أن يكون الحاكم شخصٌ مُتَسَلِّطٌ على الناس. ففي الأُولى يستوي الحاكم والمحكوم لأن الحاكم الحقيقي هو الله سبحانه بتشريعاته التي هي القانون الإلهي الذي لا يُفرِّقُ بين الناس والرقيب عليه هو الله سبحانه. وفي الثانية يكون الحاكم هو الفرد المتسلط الذي يمكنه أن يُسِنّ من التشريعات ما يسلب به حرية الناس ويعجل لهم العقاب. أما وجود مؤسسة لإدارة أحوال الناس في معاشِهم وسُبُل حياتهم الزراعية والصحية وتطويرها ومواصلاتهم وما إلى ذلك من حاجيات الناس، أمرٌ تقتضيه الضرورة، ولا يُنظَر إليها أنها مِن الدين أو أنَّ لها صفةً دينية، وسمِّها ما شئت: إمارة، حكومة، دولة، مملكة، سلطنة، إمبراطورية، إلخ. ولكن ليس لمن يتولّى أمراً من الأمور المُتعلّقة بحياة الناس سلطةٌ دينية على الناس بسببها أو مَزيَّة عليهم. قال تعالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ**﴾[6] فالنبي هو الذي يُعين لهم المَلِك؛ إذاً فليس للملِك سلطةٌ دينية .. بل يحكُمُه الدين الذي جاء به النبي، ولكن لا تُنفى عنه الإدارة الدنيوية على أمور العباد الحياتية وتطويرها. وليس له تسلُّط ديني على العباد يعطيه الحق في معاقبة من يُخالفه. فالانضباط قائم باتِّباع الشرع الذي هو الدين الذي ارتضاه الناس برغبتهم، وهو كافٍ لقيام المجتمع الفاضل، ولا مجال لتشريعاتٍ بَشريّة تستوجب مخالفتها عقاباً على من لا ينصاع لها مهما أُلبِسَت من صفةٍ دينية. ولا يوجد حقٌّ لشخصٍ ليُشرِّع بِخلاف ما أنزَل الله ما يسلب الناس حرياتهم وحقوقهم، مهما أعطى نفسه من

---

1 سورة هود : 117

2 سورة هود : 117

3 سورة لقمان : 13

4 سورة الأنعام : 107

5 سورة الفاتحة : 4

6 سورة البقرة : 246

الألقاب الدينية. بل يسري عليه ما يسري على الناس مما أنزل الله مِن شرعه. فيتحقق خلقُ المجتمع الفاضل الذي تزيِّنه الأخلاق التي بُعث النبي صلى الله وبارك عليه وآله ليُتَمِّمها.

والدولة إذا قامت وتحكُمُها الشرائع السماوية فالحاكم فيها لا ميزة له على أي فردٍ فيها مهما قل شأنه، ولا فضل له عليه إلا بالتقوى التى عِلمُها عند الله. ولا يبطل ما يكون من أوامر وتشريع لانضباط العمل الصحي والاجتماعي والحركي مما يتعارف عليه الناس على ألا يكون مخالِفاً لحقوق الإنسان التي شرعها الله لكرامته، ولكن ليس لتلك الأوامر صفة دينية أو قداسة ربانية وأعلى سلطة فيها هي الدستور بسلطاته القضائية والتنفيذية التي يرتضيها الناس ويجمعون عليها لتوفر القيم الأخلاقية والصلاح والعلم، فيُحكِّمونها برضاً وطواعية، لا بإكراه وإجبار وتسلط.

من هم الَّذِينَ آمَنُواْ ؟

قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1].

صدرت الإرادة الإلهية بتسمية قوم موسى بالذين هادوا وهم اليهود وقالوا ﴿**إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ**﴾[2]، وقوم عيسى بالنصارى ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى**﴾[3] وهم المسيحيون وكلّهم أهل كتاب. ولم يكن العرب ينتسبون إلى أيّ منهم فسمّوهم بالأُمّيّين وقالوا ﴿**لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾[4] لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب. وبُعِث محمد صلى الله وبارك عليه وآله فيهم فسُمِّي النبي الأُميّ. ولم يُطلق عليهم اسم الأُمّيين لعدم معرفتهم بالقراءة والكتابة؛ فقد كانت هناك مُعَلّقات من الشِّعر في الكعبة المشرفة، وكان هناك كُتّابُ الوحي. والسبب في أن أبابكر وعمر رضي الله عنه لم يكونا من كُتَاب الوحي ليس هو عدم معرفتهما بالقراءة والكتابة؛ بل لسُكناهما في السُّنح خارج المدينة؛ إذ كانا يتناوبان المجيء إليها. فقد وَرَد عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ ورقةً مِن كتاب اليهود أمام النبي صلى الله وبارك عليه وآله حتى قال له النبي صلى الله وبارك عليه وآله "**أمُتَهوّكون فيها يا ابن الخطاب**"[5]. فما كانت هذه التسمية "الأُميين" إلا لأنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب. فلذلك تنتفي تسميتهم بالأميين بعد أن أنزل الله إليهم كتاباً فيه ذكرهم ﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ**﴾[6] وهكذا يبدو الاسم مرتبطاً بعدم وجود كتاب منزل إليهم قبل رسالة محمد صلى الله وبارك عليه وآله، قال تعالى : ﴿**لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾[7] وقال تعالى : ﴿**لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾[8] فمِنهم من آمَن بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله، وهؤلاء سُمّوا بـ"الذين آمنوا" كما سَمَّى اللهُ قومَ موسى بـ"الذين هادوا" وقوم عيسى بـ"النصارى". وهذا التمايز بالأسماء لم يكن إلا نسبةً للحقب التاريخية للمسلمين وليس لأسباب دينية، لأنّ كُل مَن آمنِ برسولِه مِن اليهود والنصارى والذين آمنوا فهو مسلم. قال تعالى : ﴿**..وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً...**﴾[9]. ويتضح من هذه الآية الكريمة الفرق بين الذين كفروا والذين أوتوا الكتاب، والمماثلة بين الذين في قلوبهم مرض والكافرين، وبين الذين أوتوا الكتاب والذين آمنوا. لهذا فلا يصح تفسير "المغضوب عليهم" و"الضالين" في سورة الفاتحة بأنهم أهل الكتاب اليهود والنصارى؛ إنما هم المنافقون والكافرون. فالدين هو الإسلام قال تعالى : ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ**﴾[10] لأنّ جميع الأنبياء جاءوا بالدين فهُم مسلمون وكذلك أتباعهم مسلمون قال تعالى : ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ**﴾[11] وقال تعالى : ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**﴾[12]. فأهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم مسلمون كما بَيَّن ذلك القرآن العظيم، والكُفّار هم الذين لم يؤمنوا برُسُلهم. ومَن يؤمِن بأن عيسى عليه السلام مُسلمٌ وَجَبَ عليه القول بأن مَن يَتَّبِعه مُسلم كذلك ؛ إذ يستحيل أن يكون أنصار المسلم وأتباعه كُفَّار ؛ كذلك مَن يؤمِن بأنّ موسى عليه السلام مُسلمٌ وَجَبَ عليه الإيمان بأنّ مَن يتّبعونه مُسلمون.

---

1 سورة البقرة : 62
2 سورة الأعراف : 156
3 سورة المائدة : 82
4 سورة آل عمران : 75
5 مسند أحمد
6 سورة الأنبياء : 10
7 سورة يس : 6
8 سورة السجدة : 3
9 سورة المدّثر : 31
10 سورة آل عمران : 19
11 سورة المائدة : 44
12 سورة القصص : 52-53

فإذا كان من آمن بموسى عليه السلام مُسلِماً، ومن آمن بعيسى عليه السلام مُسلِماً، ومن آمن بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله مُسلِماً، أصبح مِن الضروري وجود تمييز في الاسم بين هذه الأُمَم المُسلِمة للمُخاطَبة. ولا ينفي وجود اسم اليهود أو النصارى صفة الإسلام. كما أنّ إطلاق اسم المسلمين على قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله لا يميّزهم عن تلك الأمم المسلمة. فما جاء التمايز في التسمية للمسلمين في الرسالات المتعددة إلا نسبة للحقب التاريخية. فالدين كله واحد ولا نُفَرِّق بين أحد من رسله، ونُقَدِّس كتبهم المُنزلة إليهم كما هو واجبٌ علينا، ونُحبّهم.

فقوم النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله مَيَّزهم الله سبحانه عن بقية المسلمين في الأمم السابقة باسم الذين آمنوا. وأكَّد القرآن العظيم أن صفة المسلمين لا تنطبق عليهم وحدهم، بل أيضاً على أتباع موسى وعيسى ولوط عليهم السلام. قال تعالى : ﴿**قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[1] ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾[2] وقال تعالى عن أتباع لوط عليه السلام ﴿**فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[3]. فأنزل الله سبحانه القرآن مخاطباً قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله بصيغة "الذين آمنوا"، وليس بصيغة "يأيها المسلمون" أو "يأيها الذين أسلموا"، لأنّ ذلك يشمل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين اتبعوا رسلهم - لأنهم مسلمون أيضاً - وهؤلاء إذا توجّه الخطاب القرآني إليهم فإنه يكون بصيغة "يا أهل الكتاب" - ولم يُخاطبهم بالأُمِّيين لأنّهم أصبحوا أهل كتاب بعد نزول القرآن إليهم؛ ولم يخاطبهم بـ"يا أهل الكتاب" لأنّ ذلك يُشير أيضاً إلى من سبقهم من الأُمم التي أُنزل إليها الكتاب. وكلُّ أمَّةٍ لها كتابها الذي أنزله الله إليها لتهتدي به وتتحاكم إليه في هذه الدنيا ولا تعدل عنه، بل تُقيمه كما هو واجبٌ عليها، قال تعالى : ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾[4] وهي مسؤولة عن كتابها هذا يوم القيامة. قال تعالى : ﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا**﴾[5]، أمّا مَن لم يؤمن منهم برسوله أو بأيٍّ من الرُّسُل أو الكُتُب المُنزلة من الله تعالى فهو ليس بمسلم بل هو كافر بما أنزل الله وبرسل الله. وعليه فحَصْرُ صِفة المسلمين على قومِ محمد صلى الله وبارك عليه وآله فقط إنما هو سَلبٌ لها مِمَّن سَمَّاهم الله تعالى بالمسلمين من الأمم الأخرى. فكيف يجرؤ أحدٌ أن يجحد فعل الله ويُكفِّر من شهد الله له بالإسلام؟ فإنَّ مَن وَصَفَهُ الله بِصِفَةٍ لن ينفيها عنه الزمان أو الإنسان.

ولا يقولنّ أحد إنّ رسالة محمد صلى الله وبارك عليه وآله جاءت ناسخةً لما قبلها من الرسالات، فإنّ هذا مُعاكِسٌ تماماً لِما جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله فيما أنزله عليه الله سبحانه. فقد جاء النبي محمد صلى الله وبارك عليه وآله ﴿**مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**﴾[6]، بل مَدح تلك الكُتب السابقة؛ قال تعالى : ﴿**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً**﴾[7]. فما جاءت الرسل صلوات الله عليهم إلا بما يجلب المحبة بين البَشَر. وما جاءت الرسالات متناقضة ومتباغضة، يُكفِّر بعضها بعضاً، أو لتشحَن النفوس بذلك ليسفكوا دماء بعضهم بعضاً، أو لِخَلق العصبية الدينية المُخالفة لكلّ ما جاءت به الرسالات!! ولينظر أصحاب العصبية الدينية الذين يُفرِّقون بين الرُّسُل إلى فعل النبي صلى الله وبارك عليه وآله في وقوفه لجنازة اليهودي حينما مرَّت أمامه.

ولا يوجد ما يحصر اسم المُسلمين من النصارى على عهد عيسى عليه السلام فقط، ولا يجوز لأحد أن يقول إنما المُسلمون من النصارى هم فقط الذين عاصروه قبل رَفعِه ولكنهم ليسوا كذلك بعد بعثة محمد صلى اله وبارك عليه وآله! فأتباع عيسى عليه السلام هم أتباعه إلى يوم

---

1 سورة آل عمران : 52
2 سورة يونس : 84
3 سورة الذاريات : 36
4 سورة المائدة : 66
5 سورة الجاثية : 28
6 سورة المائدة : 48
7 سورة هود : 17

القيامة، فعيسى عليه السلام لم يُقتَل ولم يُصلب ولم يمُت، بل توَفَاه الله ورفعه إليه، قال تعالى : ﴿..إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..﴾[1] والله سبحانه لم يرفعه إليه ميتاً، ولا تكون الرفعة لميت، فإن الله نفى الموت عن الشهداء لرفعة مكانتهم وهو أفضل منهم. ولا تكون الوفاة هنا إلا بمعنى النوم، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]. فعيسى عليه السلام لم يمُت ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[3]..﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[4] وهُم فوق الذين كفروا؛ قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[5]. فهم مسلمون كما جاء في القرآن دون تحديد زمني. لكن يُعتبَر كافراً كلّ من رَفَض الإيمان بأحَدِ رُسُل الله - إن كان منهم أو من الذين آمنوا - لأنّ الله سبحانه أكّد بأنه ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[6]. فإن مَن رَفَض الإيمان بأيٍّ من رسل الله أو كُتُبه فقد تعصَّب وجَهِل وكفر بما أنزل الله. أما مَن صَدَّق بهم جميعاً فهو مسلم ومُطالَبٌ بإقامة الكتاب المُنزل على رسوله الذي آمن به لأنه من أمته، قال تعالى : ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[7]، ولا يُجبر على العدول عنه لقوله تعالى ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[8]. بل حتى الكافر لا يُجبَر على تركِ كُفره، لقوله تعالى ﴿...وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[9].

إنَّ حَصرَ صفةِ المسلمين على قومِ محمد صلى الله وبارك عليه وآله تعني أن الإسلام لم يَبدأ إلا مع بعثةِ محمد صلى الله وبارك عليه وآله أي في سنة اثني عشر وستمائة (612) بعد الميلاد، وهذا جحود وإنكار لكلّ الرسل السابقين ورسالاتهم وأتباعهم الذين شهد الله لهم بالإسلام. بينما نوح عليه السلام قال ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[10] وإبراهيم عليه السلام ﴿كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً﴾[11] ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا...﴾[12] وتسميته هذه لكل أصحاب الديانات لأنّ الدين عند الله الإسلام. وحَصرُ صفة المسلمين على من بُعث فيهم محمد صلى الله وبارك عليه وآله فقط يتبعها نفيها عن أتباع لوط وعن قوم موسى وعيسى عليهم السلام وهذا يعني تكفيرهم كما أنها جحود لتسمية قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله بالذين آمنوا وهو الاسم الذي خاطبهم به القرآن. قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[13]. وهذا يدل على أنهم بحاجة إلى المحافظة على إسلامهم، لا على أنهم صاروا من المؤمنين ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[14]. فالذين آمنوا - أي المسلمون من قوم محمد صلى الله وبارك عليه وآله - عليهم قبول المسلمين من الأمم السابقة والاعتراف بهم - ما لم يكفروا بمحمد صلى الله وبارك عليه وآله وما أنزل عليه، لأنهم إن فعلوا ذلك فقد فرَّقوا بين رُسُل الله - وعليهم الإيمان بما أنزل الله إليهم، لا الاستخفاف به ونبذه، وإن كفروا، لأن كُفرهم لا يُغيِّر ما أنزَل الله؛ ولا يجوز رفضُه بحُجَّةِ أنَّ بِهِ تحريف. فالرَّفضُ يكون فقط للتحريف إن كان يوجد به - علمنا به أم لم نعلم - وأمرهم فيه إلى الله في الآخرة - قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾[15] لأن الإسلام

1 سورة آل عمران : 55
2 سورة الأنعام : 60
3 سورة الزخرف : 61
4 سورة النساء : 159
5 سورة آل عمران : 55
6 سورة البقرة : 285
7 سورة المائدة : 47
8 سورة الجاثية : 28
9 سورة الكهف : 29
10 سورة يونس : 72
11 سورة آل عمران : 67
12 سورة الحج : 78
13 سورة آل عمران : 102
14 سورة الحجرات : 14
15 سورة النساء : 136

هو دين الله لكل الأنبياء. قال تعالى : ﴿**قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[1].

قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[2] وهذا يعني أن المطلوب من الذين آمنوا هو أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر، كما هو مطلوب من اليهود والنصارى والصابئين. فيتضح من هذه الآية أن "الذين آمنوا" هم غير اليهود والنصارى والصابئة ومطلوب منهم كغيرهم أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر ويعملوا الصالحات ليكونوا مؤمنين. فالمؤمنون هم القمم الاجتماعية لهذه الأمم: اليهود والنصارى والذين آمنوا والصابئة. ومجرد اسم "الذين آمنوا" لا يكسبهم صفة المؤمنين إنما هو اسمٌ خاطبهم به الله في كتابه العزيز تمييزاً لهم عن غيرهم من أهل الكتب السماوية لاشتراك الجميع في الإسلام، وهو دين الله لأنبيائه الذي جاءت به رسلهم ﴿**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾[3]، ويوضح ذلك جلياً قول الحق تعالى في مُحكم التنزيل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾[4]، فلفظة "الذين آمنوا" تعني قوماً مطلوب منهم الإيمان ولا تعني "المؤمنين" بالضرورة، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...**﴾[5]. ومطلوب منهم كذلك التوبة إلى الله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً**﴾[6] ومطلوب منهم الإيمان برسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**﴾[7] ومطلوب منهم الأدب مع رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾[8] ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً**﴾[9] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ**﴾[10] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ**﴾[11] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى**﴾[12] ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾[13] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[14]. ويتضح من آيات المخاطبة هذه أنّ لفظة "الذين آمنوا" تعني مَن بُعث فيهم رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ولم يُقابلوا دعوته بالرَّفض والإنكار، وهُم مسلمون، ولا تعني وصفَهم بالمؤمنين ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[15]. فالمؤمنون هم القِمم للأمم المُسلمة في كل الرسالات، وليس فوقهم إلا أهل اليقين، وهم الذين اتبَعوا الرُّسُل وانقادوا لهم وسلَّموا وعملوا الصالحات وآمنوا باليوم الآخر وما أُنزل إليهم مِن ربِّهم.

فما خاطب القرآن المجيد أتباع محمد صلى الله وبارك عليه وآله إلا بهذا الوصف "يأيها الذين آمنوا"، وليس بـ "يأيها المسلمون" أو بـ "يأيها الذين أسلموا" حتى لا يكون اسم "المسلمين"

---

1 سورة البقرة : 136
2 سورة البقرة : 62
3 سورة البقرة : 285
4 سورة النساء : 136
5 سورة الصف : 10-11
6 سورة التحريم : 8
7 سورة الحديد : 28
8 سورة الحجرات : 2
9 سورة النور : 63
10 سورة الأحزاب : 53
11 سورة المجادلة : 9
12 سورة الأحزاب : 69
13 سورة الحديد : 16
14 سورة التحريم : 6
15 سورة الحجرات : 15

محصوراً في أتباع محمد صلى الله وبارك عليه وآله. ولكنّ السّاسة وأصحاب السلطان من بعض العرب ما كان يُمكنهم التوسُّع في مملكتهم واستعمار الدول إلا إذا تمّ لهم إقناع شعوبهم بأنهم هم المُسلمون وليس غيرهم، وعليهم توسيع رقعة الإسلام، وذلك بتوسيع مفهوم الجهاد واستغلاله لحرب أهل الرسالات الأخرى، باتهامهم لتلك الرسالات – التي أنزلها الله – أنها رسالات كافرة ألغَتها الرسالة المحمدية، بدلاً عن القول بأن الرسالة الخاتمة قد صدَّقت بها وأقرَّتها.

وقد كانت الروح القتالية هي السائدة عند العرب بين القبائل، ويتحاربون لأتفَه الأسباب ويُغيرون على بعضهم للنَّهبِ والسَّلب. فكان في توجيهِ الروحِ القِتاليةِ تلك، إلى بلادٍ أخرى أمانٌ للحُكام من الثورات الداخلية، إضافةً إلى توسيع المملكة والسلطان. فجاءت الأحاديث التي تُنادي بالحرب لِنَشرِ الإسلام، افتراءً عليه - لأن الإسلامَ رسالةُ السَّلام - ونُسِبَت للنبي صلى الله وبارك عليه وآله الذي لم تكن بعثته إلا لإتمام صالح الأخلاق، وخَلقِ المجتمع الفاضل، ورفض العدوان.

وانحرف القصد عن ما جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله في مناداته بالسِّلم وإبراز الرحمة التي تسع كل شيء لسعادة الإنسان، وتصديقه للرسالات السابقة فيما جاءت به الرُّسلُ وكُتُبُهم، وبَسط الحريّة الكاملة لكل فرد. ولا إكراه في الدين، فلا يُجبَر أحد على ترك دينه والدخول في دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله بدعوى أن هذا هو الإسلام وغيره كُفر، بل لا يُجبَر كافر على ترك كُفره ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُر**﴾[1]!!

فنَسَبوا إليه صلى الله وبارك عليه وآله حديث "**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله..**"[2] ليشحنوا الناس بالعاطفة الدينية ويُشعِلوا بهم الحروب على أصحاب الديانات المُسلِمة الأخرى التي أنزلها الله سبحانه، معيبين ما أنزل الله تعالى من الدين في الأُمم السابقة، ويرون باطلاً ما أنزله الله من الحق في كتبه المقدسة في تلك الرسالات التي أَرسَل بها كِرام رُسُله. ويتعلَّلون بوجود تحريفٍ فيها، دون أن يُعَيِّنوا مكان هذا التحريف. وحتى إن كان فيها تحريف، فيجب الإيمان بها وتقديسها ورفض التحريفِ بعد تعيينِه؛ لا رَفض الكُتب المُقدَّسة. ولكنّ حُب المُلك والسلطان أعماهم، وما فعلوا ذلك إلا لغرض توسيع ممالكهم واستعمار الآخرين، فيُطلقوا عليها اسم الفتوحات الإسلامية حتى لا يفطن الناس إلى أنها استعمار عربي لا شأن للإسلام به. ولا يوجد قتال في الإسلام إلا لمن يعتدي؛ قال تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[3].

والدعوة إلى الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله لا تتعدّى التبليغ فقط؛ قال تعالى : ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾[4]، وكذلك كانت دعوة الرسل السابقين كلهم؛ قال تعالى : ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ**﴾[5] فما كانت رسالاتهم إلى البشرية بالحروب والقتال، إنما دعوة إلى الله بحُسن الخُلُق والموعظة الحسنة ﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[6]. فما جاء خاتم الرسل صلى الله وبارك عليه وآله - الرحمة المُهداة - لإدخال الناس في الدين بالقتال والحروب، أو بغير ما كان عليه أولئك الرسل، قال تعالى : ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾[7]. والقول بِنشر الإسلام بالحروب دعوةٌ باطلة لا يسندها الدين - لا في القرآن العظيم ولا سيرة النبي المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله. وقد يتعلل البعض بأنّ حرب النبي صلى الله وبارك عليه وآله على اليهود في الجزيرة العربية كانت لنشر الإسلام المُحمدي. ولكن المُتَمَعِّن في تلك الحروب يجد أنها ما كانت لإجبار اليهود على ترك دينهم وكتابهم وإدخالهم في دين محمد صلى الله وبارك عليه وآله. وإنما كانت رداً على أسبابٍ استدعت ذلك ولم تكُن

1 سورة الكهف : 29
2 صحيح مسلم
3 سورة البقرة : 190
4 سورة النور : 54
5 سورة النحل : 35
6 سورة الأنعام : 90
7 سورة آل عمران : 144

ابتداءً بعُدوان؛ قال تعالى : ﴿**وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[1].

فحربُ بني قينقاع أشعَلَها اعتداء اليهود، في سوقهم للصَّاغة، على امرأة مُسلِمة، وتطورت بسبب ردود الفعل من الفريقين إلى حربٍ انتهت بعفو النبي صلى الله وبارك عليه وآله عليهم جميعاً، إكراماً لعبد الله بن أُبَي بن سلول الذي استَشفَع فيهم عند نبي الرحمة. وأما حربُ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله لبني قُرَيظة فَسَبَبُها أن اليهود دَعوا وحَرَّضوا قريشاً وغَطفان، وحزَّبوا القبائل على حربِ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله. ولمّا جاءت الأحزاب لِحصار المدينة، أعلَنَ يهود بني قُريظة نقضَهُم لعهدِهم مع رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله، ومالأوا قُريشاً على حربِه؛ وكان هذا سَبَب حِصارِهم. وبعد الحصار اختاروا تحكيم سعد بن مُعاذ - زعيم الأوس - بينهم وبين رسول الله، لأنهم كانوا حُلفاء للأوس كما كان بنو قينقاع حلفاءَ للخزرج، علَّهُ يستشفع لهم عند رسول الله كما استشفَعَ عبد الله بن سلول لبَني قينُقاع. فَحَكَم عليهم مَن اختاروه للتَّحكيم بالقَتل والسَّبي؛ ومهما كان الحُكم فهُم الذين اختاروه. وأما بنو المُصطلق، فقد حشدوا جيوشهم لقتال النبي صلى الله وبارك عليه وآله فخرج إليهم والتقى الفريقان وانتصر الرسول صلى الله وبارك عليه وآله. فما كانت حروب النبي صلى الله وبارك عليه وآله مع اليهود لأجل تَرك دينهم وإجبارهم على قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإنّ هذه يُدعى إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[2]. ولا تستقيم الدعوة بالعُدوان والحرب والإكراه، وصاحب الدعوة يقول "**إنما بُعِثتُ لأتَمِّم صالح الأخلاق**"[3]. وإذا كان هذا الدين هو الأفضل للإنسانية فلا يحتاج إلى إجبار الناس عليه، لأنّ الأفضل جاذِبٌ بِطبعِه للأَخذِ به. أما حديث "**لا يَجتَمِع دينان في جزيرة العرب**"[4] فلا تَصِح نِسبته لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله لأنه لا معنى له. فالدين عند الله واحد، وهو الإسلام، وهو الذي جاءت به كل رسل الله. فلَم يجيء نبي مِن عِند الله إلا بالدين، فدين الله لَم يتغيَّر بين رسول ورسول، قال تعالى : ﴿**...لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾[5].

وما سُمِّي بالفتوحات الإسلامية كلُّه عُدوان، وعلى أصحابِ دين أنزَله اللهُ إليهم عن طريقِ رُسلِهِ الكرام موسى وعيسى عليهم السلام. وغطَّت تلك الحروب الاستعماريَة بصائر الناس وعقولهم عن رؤية سماحة الإسلام وعظمته الذي جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله من المحبة لموسى عليه السلام وكتابه ولعيسى عليه السلام وكتابه، والسِّلم والحرية للإنسان في مُعتقده ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾[6]، وغيَّرت صورة الدين الذي جاء به محمد صلى الله وبارك عليه وآله، وأصبح الطرح عكس ما جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله. فالنبي صلى الله وبارك عليه وآله جاء مُصدِّقاً للتوراة والإنجيل ولموسى وعيسى عليهم السلام، وقال إنهم إخوة له. أما أصحابُ ما سُمِّي بالفتوحات الإسلامية فقد جعلوا العداوة بينهم وبين الرسالات السابقة شِعاراً وسَمُّوا أنفسهم بالمسلمين ليُكفِّروا أولئك المسلمين مِن أصحابِ الرسالات السابقة التي صَدَّق عليها رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله وعلى كُتُبها ورُسُلها. وتعامَلوا مع تلك الأُمم المُسلمة على أن أسماءها ("اليهود" و"النصارى") أسماء كُفريَّة لا تُشير إلى أنهم مسلمون، وهكذا أخرجوهم عن دائرة الإسلام. وتَخَلُّوا هم عن الاسم الذي خاطَبهم به القرآن، وهو "الذين آمنوا" ليقولوا: نحن فقط المُسلمون. وجعلوا من الإسلام المحمدي ديناً يُناطِح ما سَبَقه من دين الله ولا يَعترف به، ويُكفِّر مُعتَنِقيه. فقلبوا صورة الإسلام المحمدي وأصبح الطرح الذي يقولون عنه إسلامياً مُضاداً لما جاء به رسول الله وما أنزل الله في مُحكم تنزيله.

---

1 سورة البقرة : 190
2 سورة النحل : 125
3 مسند أحمد
4 موطأ مالك
5 سورة البقرة : 285
6 سورة الكهف : 29

صَحِبَ هذا الطرح الجديد الاستعماري المُسمى بالفتوحات الإسلامية كَمٌ هائل من الترهيب والقَمع حتى لا يجرؤ أحَدٌ على القول بعدم صحة ذلك. وجاؤوا بأحاديث تعضد ما ذهبوا إليه رغم أنها تُعارض القرآن وسيرة الرسول صلى الله وبارك عليه وآله. وفرضوا الجزية على تلك الأُمم المسلمة من اليهود والنصارى (الذين أُوتوا الكتاب) إذ عدّوها كافرة ولم يُفرِّقوا بين الكافر والمُسلم منهم، بينما القرآن قد حدَّد مَن الذي تُفرَض عليه الجزية، وهُم الكُفّار مِنهُم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق؛ قال تعالى : ﴿**قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[1]، وواضح من هذا النص أن الجزية على الذين كفروا من أهل الكتاب وليس أهل الكتاب كلهم كافرين ﴿**لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[2].. ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[3]. كما أن الذين آمنوا ليسوا كلهم مؤمنين، فقد كان بين أصحاب النبي صلى الله وبارك عليه وآله منافقون؛ وأنزل الله تعالى سورةً في القرآن بإسمهم، وجاء عنه صلى الله وبارك عليه وآله "**في أصحابي اثنا عشر منافقاً فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط**"[4] وقال تعالى مُخاطباً الذين آمنوا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[5] وهذا ليس نهيٌ عن النفاق فقط، بل تقريعٌ على شَناعَةِ ما يفعلونه مِن هذا السلوك والنِّفاق الذي يمقته الله سبحانه ممن خاطَبَهم بقوله "يأيها الذين آمنوا"، وقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ**﴾[6] فالمُناجاة التي نُهي عنها الذين آمنوا هي ﴿**...الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ**﴾[7] فهل بقي ذنبٌ أكبر مِن هذه؟ وقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً**﴾[8].

وأُعطي الحكام قداسةً بالتَّسلُّط تجعل منهم أئمة على المسلمين كافَّة، والقَتلُ مصيرُ كُلِّ مَن يُخالفهُم الرأي، كأن رأيَهم هو الدين المُنزَل من الله. ووُضِعَت أحاديث لتقديسهم بالسَّمع والطاعةِ ولو كان الحاكم فاجراً وأخَذَ مالَكَ وضَرَبَك على قفاك!! ونَسَبوا لمن بُعِث لِيُتمّم صالحَ الأخلاق حديث "**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**"[9] ولم يقل الحديث "رجلٌ حبشي" كأنما الأحباش عبيد. بينما جاء الإسلام أصلاً لتحرير الإنسان من الاستعباد، فلا يُتَوَقَّع ممن جاء لِيُحرر الإنسان أن يَصدُر مِنه ما يُسيء إلى الإنسان، مثلما جاء في هذا الحديث الذي يسئ إلى سكان بلد بأكمله!! وكيف يُنسى أن أول من استقبل المهاجرين المسلمين من عنت قريش هو النجاشي ملك الحبشة، وأن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله كان يدعو له ويقدّره وصلى عليه صلاة الغائب بعد موته. فقد جاء في القرآن العظيم إحترام الإنسانية قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[10]. وأصبح الإسلام عندهم يعني السلطة، والذي على رأس السلطة هو أمير المؤمنين، وقوله هو الدين، ومن يخالفه فهو من الهالكين، ولو كان مِن أبناء النبي الأمين. وصدق رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله القائل "**إن الكتاب والسلطان سيفترقان**"[11]، وصدَقت

---

1 سورة التوبة : 29
2 سورة آل عمران : 113-114
3 سورة آل عمران : 199
4 صحيح مسلم
5 سورة الصف : 2-3
6 سورة المجادلة : 9
7 سورة المجادلة : 9
8 سورة النساء : 136
9 صحيح البخاري
10 سورة الإسراء : 70
11 مجمع الزوائد

نبوءة مَن لا ينطق عن هوى. قال تعالى : ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾[1]. وجَلَب الحاكم حوله أهل العلم ليُشَرِّعوا له ديناً يناسب هواه، وربما قال لأحَدِهم اعمل لي مذهباً ووَطِّئه بين التَّشدُّد والرُّخَص[2]، ثم يصادر حرية الفكر ويأمر "لا يُفتى ومالك بالمدينة". وأصبح الدين يؤخذ من علماء السلطان الذين يُصدرون الفتوى للسلطان فيما يُريد فعله؛ ليكون ذلك من الدين وتكون أفعال الحاكم كلها مشروعة، حتى سفك دماء المُعارضين في الرأي بإصدار فتوى أنهم ضد الدين. ولا يُلتَفَت لقول الله تبارك وتعالى ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُر**﴾[3] ولا لسيرة المعصوم صلى الله وبارك عليه وآله الذي قال لمُشركي مكة حين فتحها "**اذهبوا فأنتم الطُلقاء**"[4] ولم يأمرهم بقول لا إله إلا الله!! وتبرّأ مِن قتل خالد بن الوليد لبعض مُشركي مكة حين فتحها وقال "**اللهم إني أبرأُ إليك مما صَنَع خالد بن الوليد**"[5].

وأصبح الدين تبعاً للإرادة السياسية، والحاكم هو خليفة المُسلمين وهو الراعي للدين والمسئول عنه ولا يُعصى أبداً. فالفتوى تُحرِّم معصية الحاكم، فقد أصبح مُقدَّساً والخروج عليه يعني الخروج على الإسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله. كأنه هو رأس الإسلام ولو كان بليداً لا يفقه شيئاً، وأنه لا يوجد على وجه الأرض دينٌ غير الذي عليه هذا الحاكم. وتصدر الفتوى بِكُفر كل الرسالات الأخرى وقتل مُعتنقيها إن لم يُسَلِّموا لهذا الحاكم، وبألّا قداسة لكتبهم المُنزلة ورُبما تُحَرَّق ويُداس عليها بالأرجُل، ويُجَرَّدوا من اسم المُسلمين الذي وصفهم به الله سبحانه، ولا يُطلق إلا على أتباع ذلك الحاكم. ولا يلتَفِتُ أحدٌ إلى سماحة الإسلام الذي جاءت به الرسل الكرام وصدَّق عليه خاتم الرسل صلى الله وبارك عليه وآله. بل أصبح الأمر للسّاسة والحُكام ليُشرّعوا من الدين ما لم يأذن به الله. وإذا ذُكِّروا بالقرآن العظيم وتُليت عليهم آياته وقيل لهم إن الله سبحانه يقول في محكم تنزيله ﴿**...وَمَن شَاء فَلْيَكْفُر**﴾[6]، فَسَّروا قول الله هذا - مِن عندِهم – بعكس ما يُفهم منه وقالوا: لا، مَن يكفر يُقتَل. وإذا قيل لهم قال الله ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾[7] فسَّروها كذلك بعكس ما يُفهَم منها وقالوا: لا، بل ندعو بالقتال والسيف. وإذا قيل لهم ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾[8] قالوا: لا، بل لابد من تكوين دولة للقتال لنشر الإسلام. فهل هذا اتِّباعٌ لِما أُنزَل الله؟ وإذا قيل لهم إن مَن عصى رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله فلا عِقاب عليه في هذه الدنيا - قال تعالى : ﴿**فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[9] - وغاية عِقابِه في الدنيا أن يَتَبَرّأ الرسول صلى الله وبارك عليه وآله مِن فِعلِه، قالوا: مَن يعص الحاكم فمصيره القتل أو يودَع في غياهب السجون. هذا ما كان من أمر القرآن. أما مِن حيث السيرة، فإذا قيل لهم إن رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله لم يُقاتِل لفرض الإسلام على الناس قالوا: لا، بل كانت له غَزَواتٌ مِنها بَدر الكبرى وأُحُد والخندق؛ وتَفضَح الحقيقةُ زعمَهم هذا لأنها كانت دفاعاً عن المدينة ولم تكن غزواتٍ لِنشر الإسلام.

ولربما قالوا إن الرسول صلى الله وبارك عليه وآله وَضَعَ الأساس للدولة الإسلامية، ليأتي مِن بعده مَن يُكمِل إنشاء الدولة، بتجاهُلٍ أو رَفْضٍ لقوله تعالى : ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً**﴾[10]. وإذا كان هذا اعتقادهم، فإنهم يجعلون لِمن يؤسِّس للدولة ويوسع مرافقها مكانةً في نفوسهم أكبر من تلك التي كانت لِمن يعتقدون أنه أنشأ دولةً بدائية لم تكتمل مؤسّساتها، فهذا الذي أسس للدولة ووسع مرافقها لايسلك فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غيره[11] والآخر عندهم يقاتله الشيطان في صلاته حتى يضطر لخنقه[1]. وأصبح الدين

---

1 سورة التوبة : 97

2 حين أشار الخليفة المنصور على مالك بتأليف الموطإ قال له "**يا أبا عبد الله إنه لم يبق على وجه الارض أعلم مني ومنك وإني قد شغلتني الخلافة فضع أنت للناس كتابا ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس توطئة**" – تاريخ بن خلدون

3 سورة الكهف : 29

4 سنن البيهقي الكبرى

5 صحيح البخاري

6 سورة الكهف : 29

7 سورة النحل : 125

8 سورة النور : 54

9 سورة الشعراء : 216

10 سورة المائدة : 3

11 صحيح البخاري

عندهم هو الدولة، ورأسُها هو رأس الدين، وله من القداسةِ ما كانت لرسول الله صلى الله وبارك عليه وآله!! كأنّ رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله كان رئيساً للدولة أو حاكماً مُطلقاً!! بل وُضِعَ مِن الأحاديث ما يُجَرِّد الذَات الشريفة المُحمدية عمَّا حَباها الله به مِن التّبجيل والقداسة التي بلغت مِن القدر دَرَجةَ إحباط كل العمل لمجرد رفع الصوت في حضرته صلى الله وبارك عليه وآله. وحرصوا على إظهارها بالشخصية العادية التي تُخطئ في أداء رسالتها، فيصحِّحها بعض الأصحاب، حتى لا يُرى فرقٌ كبير بين رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله ومن جاء بعده من الحكام، بل ربما جعلوا لذلك الحاكم أفضلية في بعض المواقف، وجاءوا بقاعدة "وَقَدْ يَكُونُ فِي الْمَفْضُولِ مَزِيَّةٌ بَلْ مَزَايَا لَا تُوجَدُ فِي الْفَاضِلِ"[2]؛ وذلك لِدعم حُجَجِهم الواهية لتبرير مواقف أحد أمراء المؤمنين في مقابلة فعل رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله[3]، ولو كان ذلك الأمير ينفي أحد رعاياه[4] لمجرد أن الله سبحانه خلقه جميلاً حسن الصورة!!. وأصبحت القداسة لكلّ مَن يستطيع أن يفرض حُكمَه على الناس ويُسمِّي نفسه أميراً أو خليفةً على المُسلمين!! وأصبحت الدولة وما يصدر فيها من تشريع هي الإسلام، ولو كان مُغايراً لما جاء به رسول الله صلى الله وبارك عليه وآله. وقد يُغيِّر هذا التشريعُ حُدود الله، فيُغَيِّر حدّ شُرب الخمر مِن أربعين إلى ثمانين جلدة، وتُعَدِّل مصارف الزكاة إلى أن تشمل التَّبرُّع للأندية الرياضية، وتؤخذ الزكاة مِمَّن لا يملك النصاب بِضَم ما عنده إلى جاره ليكتمل النصاب ثم تؤخذ منه الزكاة، ومَن لم يدفعها يُقدَّم لمحكمة خاصة يودَع بعدها السجن ليكون من الغارمين لديوان الزكاة!! ويوضَع قانونُ الزكاة كَأنّ الله سُبحانه لم يُبَيِّن مصارفها، ولكنّ القانون يتوسَّع في التصرُّف في أموال الزكاة ليشمل التبرُّعات لأجهزة الدولة، فشرَع الفُقَهاء من الدين ما لم يأذن به الله!! فهل يُريدون بذلك حقاً وجه الله؟ فالزكاة التي شرَعها الله لمُساعدة المُحتاجين أصبحت تُدخِل المُحتاجين السجون! ولا غرابة في أن تسمع أن الزكاة ربحت هذا العام لأنها لم توزع على الفقراء في العام الفائت بل جُعلت في مؤسسة تجارية!! وكُل ذلك يصدر بفتوى مِن عُلماء الدولة فيَظهر بِمَظهر الدين والتشريع الإسلامي.

وليس لنا أن نقول بعد هذا إلا قول الحق ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾[5].

---

1 صحيح البخاري ومجمع الزوائد

2 الفتاوى الفقهية الكبرى

3 في خطأهم الفادح في أمر أسرى بدر (راجع رسالتنا في أسرى بدر)

4 نصر بن حجاج

5 سورة البقرة : 159

www.Abugroon.com